رواية

لاري ترمبلاي

حقل البرتقال

ترجمة: شوقي البرنوصي

صفحة ٧

Scanned with CamScanner

إلى جوان

Scanned with CamScanner

آماد

إذا ما بكى آماد، فإنّ عزيزا سيبكي بدوره. وإذا ما ضحك عزيز، فسيضحك آماد أيضا. كان النّاس يقولون في استهزاء: «سينتهي بهما الأمر إلى الزّواج».

كانت جدّتهما تُدعى شاهينة. وكانت بِبَصرها الضّعيفِ دائمةَ الخلط بين حفيديْها، تراهما كقطرتيْ ماء [لعطشها] في امتداد الصّحراء. هي دائما ما تقول: «توقّفا عن شدّ يديْكما ببعضهما البعض، هذا يجعلني أعتقد أنّي مزدوجة الرّؤية». وتقول: «يوما ما، لن تكون هناك قطرات فقط، سيكون هناك ماء، وهذا كلّ ما في الأمر» والأوْلى بها أن تقول: «يوما ما، ستكون هناك دماء، وهذا كلّ في الأمر».

عثر آماد وعزيز على جدَّيْهما بين حطام منزلهما. كانت جدّتهما مشطورة الجمجمة بعمود. وكان جدّهما ممدّدا على سريره وقد مزّقته قنبلة آتية من ناحية سفح الجبل، حيث تختفي الشّمس كلّ مساء.

كان اللّيل ما زال مُخيِّما عندما هَوتِ القنبلةُ. لكنّ شاهينةَ كانت صاحية قُبيْل الانفجار بقليل. فقد عُثر على جثّتها في المطبخ.

وماذا كانت تفعل في المطبخ في عمق اللّيل؟ تساءل آماد.

Scanned with CamScanner

لا نعلم ذلك. ربّما كانت بصدد إعداد كعكة في السرّ. أجابت أمّه.

ولِـمَ في السرّ؟ سأل عزيز.

ربّما كانت تخطّط لمفاجأة، اقترحت تمارا على ولديْها وهي لا تكفّ عن كنس الهواء بيدها وكأنّها تطرد ذبابة.

كانت جدّتُهما شاهينةُ متعوّدة على التّحدّث إلى نفسِها. في الحقيقة، لقد كانت تحبّ التحدّثَ إلى كلّ ما يُحيط بها. وكان الصبيّان دائما ما يضبطانها وهي تستنطق ورود الحديقة، وتحاور الجدول الّذي يفصل بين منزليْهما. لقد كانت قادرة على قضاء السّاعات الطّوال وهي منحنية توشوش بعض الكلمات للماء. كان زاهد يخجل من رؤية أمّه وهي تتصرّف بتلك الطريقة. عاتبها لأنّها تقدّم بصنيعها ذاك مثلاً سيّئا لولديْه. صرخ في وجهها: «أنت تتصرّفين كمجنونة!». طأطأتْ شاهينة رأسها، وأغمضت عينيْها ولاذت بالصّمت.

في إحدى الأيّام أخبر آماد جدّته:

هناك صوت داخل رأسي، إنّه يتكلّم وحده. لم أستطع أن أخرسه، إنّه يفصحُ عن أشياء غريبة. وكأنّ شخصا آخر مخفيّا يقيمُ داخلي، وهو أكبر منّي سنّا.

اِحْكِ لي يا آماد. أخبرني عن تلك الأشياء الغريبة الّتي يقولها لك.

لا يمكنني أن أذكرها لك، سوف أنساها مع مرور الوقت.

لقد كان يكذب، لم ينسَها.

زار عزيزٌ المدينة الكبيرة لمرّة واحدة. اكترى أبوه زاهدٌ سيّارة، واستأجر

Scanned with CamScanner

لها سائقًا. انطلقا عند الفجر. كان عزيز يتأمّل المشاهد الطبيعيّة المتجدّدة والمتعاقبة على ناظريْه من بلّور السيّارة. كان يلمس جمال الفضاء الّذي يشقّونه. ويلمس جمال الأشجار الّتي راحت تغيب عن ناظريْه. كان يدرك روعة البقرات بقرونها المطليّة بالأحمر، وهي هادئة هدوء أحجار موضوعة فوق تراب حارق. كانت الطّريق تهتزّ ما بين الفرح والغضب. وكان عزيز يتلوّى من هوْل الألم، ومع ذلك لم يكفّ عن الابتسام. كانت نظرته تُغرق الطّبيعة دموعا. تلك الطّبيعة الّتي كانت شبيهة بصورة بلده.

قال زاهد لزوجته:

سأنقله إلى مستشفى المدينة الكبيرة.

سأصلّي، وسيصلّي أخوه آماد أيضا. أجابت تمارا بكلّ بساطة.

عندما أعلن السّائق عن اقترابهم من المدينة، أُغميَ على عزيز في السّيّارة فلم يعدْ يرى شيئا من تلك المناظر الخلاّبة الّتي طالما سمع عنها. استعاد وعيه وهو مستلق على سرير. وكان في نفس الغرفة أسرّة أخرى وأطفال آخرون ممّن هم ممدّدون على أسرّتهم أيضا. راح (عزيز) يظنّ بأنّه طريح كلّ تلك الأسرّة. وأنّ ألمه الكبير ما جعل جسده متعدّدا. ظنّ أنّه قد تلوّى من الألم فوق كلّ تلك الأسرّة وداخل كلّ تلك الأجساد. انحنى الطّبيب للكشف عنه. بينما راح عزيز يستنشق عطره الفوّاح. كان يبدو لطيفا ولا يكفّ عن رسم ابتسامة على مُحيّاه. ورغم ذلك كان عزيز خائفا.

هل نمتَ جيّدا؟

لم ينبس عزيز بكلمة. عدّل الطبيب هيأته وصارت بسمته باهتة، تحدّث إلى والده الّذي غادر القاعة الكبيرة رفقة الطبيب. كانت قبضتا زاهد متوتّرتيْن،

Scanned with CamScanner

وكان يتنفّس بقوّة.

بعد أيّام، بدأ عزيز يحسّ بالتّحسّن شيئا فشيئا. ناولوه خليطا خثرا ليشربه. كان يشربُ منه صباحا ومساء. كان لونه ورديّا، لم يكن طعمه يعجبه لكنّه سكّن آلامه. وكان أبوه يزوره كلّ يوم. وقد أخبره بأنّه يقيم عند قريبه المسمّى «قصير». هذا كلّ ما قاله له. كان زاهد يتأمّله في صمت ويتحسّس جبينه أحيانا بيده الصلبة كالغصن. في إحدى المرّات استفاق عزيز فجأة بينما كان والده يراقبُه وهو جالس على الكرسيّ. بدت له نظرته تلك مرعبة.

كان هناك طفلة صغيرة تشغل السّرير المجاور لعزيز. وكان اسمها «نيلان». أخبرت عزيزا بأنّ قلبَها قد نما بشكل غير سويّ. «لقد نما قلبي مقلوبا، لو تعلم، فطرفه ليس في مكانه». كانت تروي ذلك لكلّ من يعترضها من الأطفال، نزلاء القاعة الفسيحة في المستشفى. لأنّ «نيلانَ» كانت تحادث الجميع. في إحدى اللّيالي علا زعيق عزيز خلال نومه. ارتعبت «نيلان». في الصّباح الباكر، راحت تروي كلّ ما شاهدته لكلّ من يعترضها.

لقد صارتْ عيناك بيضاويْن مثل كُرتيْن صغيرتيْن مصنوعتيْن من العجين، كنت قد انتصبتَ واقفا على سريرك لتقومَ بحركات واسعة بذراعيك. ظننْتُ في بادئ الأمر بأنّك كنت تحاول إخافتي لا أكثر. ناديتك باسمك. لكنّ عقلك لم يكن في رأسك. لقد طار إلى مكان لا يعلمه أحد. جاءت الممرّضات. وقمن بتركيز حاجز واق حول سريرك.

لقد داهمني كابوس!

Scanned with CamScanner

لماذا توجد الكوابيس؟ هل تعلم السّبب، أنت؟

لا أعرف يا "نيلان". تقول أمّي دائما: «الله وحده يعلم».

أمّي تقول الشّيء نفسه: «الله وحده يعلم». وتقول أيضا «هكذا تسير الأمور منذ ليل الزّمن». حادثتني أمّي عن«ليل الزّمن» ذاك، إنّه يقابل أوّل ليلة في العالم. كان الظّلام حالكا ليلتها وعندما جاء أوّلُ شعاع شمس ليَخترق ظلمة تلك اللّيلة راح يعوي من شدّة الألم.

كان الأولى باللّيل أن يعويَ (لا شعاع الشّمس) فهو ما تمّ اختراقه.

ربّما... ربّما... أجابتْ "نيلان".

بعد مضيّ أيّام، سأل زاهد عزيزا أين ذهبتْ الفتاة الصّغيرة الّتي كانت بجواره. ردّ عزيز بأنّ أمّها قد أتت لأخذها إلى المنزل لأنّها قد شُفيت تماما. نكّس زاهد رأسه، ولم يقل شيئا. رفع رأسه بعد وقت طويل، ولم يقل شيئا مرّة أخرى. ثمّ مال برأسه نحو طفله، وطبع قبلة على جبينه. كانت تلك القبلة الأولى. دمعتْ عينا عزيز، فهمس والده:

غدا، نرجع إلى البيت بدورنا.

غادر عزيز مع والده صحبة السّائق نفسه. شاهد الطريق وهي تتوارى على المرآة العاكسة. اصطنع أبوه صمتا غريبا وراح يدخّن داخل السيّارة. كان قد جلب له تمرا وكعكة. قبل الوصول إلى المنزل، سأل عزيز والده إن كان قد شُفي.

لن تعود أبدا إلى المستشفى. لقد كانت صلواتنا مستجابة.

وضع زاهد يده الكبيرة على رأس ولده. كان عزيز سعيدا. بعد ثلاثة أيّام، كانت القنبلة القادمة من السّفح الآخر للجبل قد اخترقت عباب اللّيل لتقضيَ

Scanned with CamScanner

على جدّيْه.

***

تلقّت تمارا رسالة من أختها دليمة، في اليوم نفسه الّذي وصل فيه زاهد وعزيز إلى المدينة الكبيرة. لقد رحلت إلى أمريكا قبل سنوات لمتابعة تربّص في الإعلاميّة. فهي أُختيرت من بين مئات المترشّحين. إنّه انجاز عظيم. لكنّها لم ترجع للبلاد أبدا. كانت دليمة تكتب رسائل لأختها بانتظام، حتّى وإن ظلّت ردود تمارا نادرة. كانت في رسائلها دائما ما تصف حياتها. لا وجود لحرب هناك، وهذا ما يجعلها سعيدة جدّا، وجريئة إلى حدّ بعيد. كانت دوما تقترح على تمارا أن ترسل لها مالا، لكنّ تمارا كانت ترفض معونتها تلك بكلّ جفاء.

أعلمتها دليمة في رسالتها هذه أنّها حامل. وهو طفلُها الأوّل. كتبت إليها لتدعوَها إلى الالتحاق بها رفقة التوأم. يمكنها أن تجد طريقة لجلبهم إلى أمريكا. كما سمحت لنفسها بأن تكتب بأنّ على تمارا أن تهجر زاهدا، وأن تتركه وحيدا مع حربه وحقول برتقاله.

«كم تغيّرتْ في غضون هذه السّنوات القليلة!» ردّدت تمارا في نفسها.

هناك أيّام، خلالها تكره تمارا أختَها. كانت دائما ما تحسدها: كيف يمكنها أن تتخلّى عن زوجها؟ أمّا هي فلن تهجر زاهدا. مُطلقا. ستحارب بدورها حتّى وإن كانت دليمة قد كتبت لها بأن لا جدوى من حربهم وأنّها لن تخلّف سوى الخاسرين.

كفّ زاهد على متابعة أخبار تمارا منذ زمن طويل. فدليمة أصبحت بالنّسبة إليه في عداد الموتى. كان يرفضُ مجرّد لمس رسائلها. كان يقول بتقزّز «لا أريد أن أدنّس نفسي». كان زوج دليمة مهندسا. ولم تكن قد ذكرته في

Scanned with CamScanner

رسائلها البتّة. فهي تدرك أنّ عائلتها تعتبره منافقا أو جبانا. كان قد قدم من النّاحية الأخرى من الجبل. فهو بذلك عدوّ. ولذلك فقط هرب إلى أمريكا. حيثُ روى فظائع وقصصا مرعبة حول شعبه من أجل أن يقبلوه. هذا ما راحت تظنّه تمارا وزاهد أيضا. كيف لم تجد دليمة شيئا آخر تفعله غير الزّواج بعدوّ، حين وصلت إلى هناك؟ كيف تجرّأت على ذلك؟ «هو اللهّ مَنْ وضعه في طريقي!»، كتبتْ يوما. «لكنّها سخيفة، راحت تفكّر تمارا. لقد جعلتْ أمريكا حكمها على الأشياء قاتما جدّا. ماذا كانت تنتظر؟ أن نُبادَ جميعا من طرف أصدقاء زوجها؟ فيم فكّرتْ عند الزّواج به؟ بأنّها سوف تساهم في نشر السّلم؟ في الواقع، لقد كانت دائمةَ الأنانيّة. ما فائدة إخبارها بمصائبنا إذن؟ قد يستمتع زوجها بمعرفة ذلك، من يدري؟»

لم تذكر تمارا في ردّها المقتضب على رسالة أختها الّذي كتبته ذلك اليوم، شيئا عن إقامة عزيز في المستشفى ولا عن قصّة القنبلة الّتي قضَت على حَمَويْها.

Scanned with CamScanner

قَدِم رجال على متن سيّارة من النّوع «الجيب». لمح آماد وعزيز سحابة من الغبار على الطّريق الّتي تمرّ على مقربة من منزلهما. وجدا أنفسهم في حقل البرتقال. هناك حيث أراد زاهد دفن والديه. وكان قد فرغ من رمْيِ غمرة التّراب الأخيرةِ. كانت جبهتُه وذراعاه مخضّبة بالعرق. وكانت تمارا تبكي وتعضّ على باطن خدّها. توقّفت سيّارة «الجيب» على حافّة الطّريق. نزل منها ثلاثة رجال. كان بيدي أكبرهم مدفع رشّاش. لم يتوجّهوا مباشرة إلى حقل البرتقال. بل أشعلوا سجائر. تخلّى آماد عن يد شقيقه وراح يقترب من الطّريق. كان يريد الاستماع لما يقوله هؤلاء الرّجال. لكنّه لم يتمكّن من ذلك. إذ كانوا يتكلّمون بصوت خافت جدّا. خطا أصغر الثّلاثة بضع خطوات في اتّجاهه. وهنا تعرّف آماد على حليم. لقد كبر كثيرا.

هل تتذكّرني؟ أنا حليم. عرفتك في مدرسة القرية، هذا عندما كان هناك مدرسة.

وشرع حليم في الضّحك.

أجل. أتذكّرك، كنت الوحيد الّذي يحادثنا أنا وأخي من بين كلّ التّلاميذ الكبار. لقد نـمَت لك لحيةٌ.

نحن نريد التّحدّث إلى والدك زاهد.

قفل آماد راجعا في إتّجاه حقل البرتقال، وهو متبوع بالرّجال الثّلاثة. اقترب والده منهم. لاحظ آماد بأنّ عينيْ والدته قد تصلّبتا. صاحت تمارا

Scanned with CamScanner

به ليعود ويلتحق بها. تناقش الرّجال مع زاهد لوقت طويل. كانت كلماتهم تذهب أدراج الرّيح. قالت تمارا في نفسها إنّ هذا اليوم ملعون، وهو أوّل يوم من أيّام عديدة أخرى ملعونة. راحت تتأمّل زوجها. أبقى زاهد رأسه منخفضا، ناظرا صوب التّراب. أشار حليم لآماد. أفلت هذا الأخير من ذراع أمّه التي كانت تمسك بولديْها وتضمّهما إلى بطنها ليلتحق بالرّجال. وضع زاهد يده على رأسه قائلا بفخر:

هذا ولدي آماد.

والولد الآخر؟ سأل الرّجل صاحب الرشّاش.

إنّه عزيز، أخوه التّوأم.

مكثَ الرّجال إلى حدود المساء. أطلعهم زاهد على أنقاض منزل والديْه. رفع الجميع رؤوسهم ناحية الجبل وكأنّهم يبحثون في السّماء عن أثر ما للقنبلة. أعدّت تمارا شايا. أرسلت ولديْها إلى غرفتهما. لاحقا، رأى آماد وعزيز من خلال النّافذة الرّجل صاحب الرشّاش وهو يعود إلى ناحية سيّارة «الجيب». رجع بعد لحظات يحمل كيسا بين يديه. اعتقدا لوهلة بأنّهما يستمعان لصراخ والدتهما. رحل الرّجال بعد ذلك. ظلّ صوتُ سيّارة «الجيب» وهي تبتعد يتردّد في عمق اللّيل لوقت طويل. ضمّ آماد شقيقه عزيز بين ذراعيه وغرقا في النّوم أخيرا.

من الغد، قال له عزيز:

ألم تلاحظ؟ لم تعد للأصوات نفس الضّجيج، والصّمت، يبدو وكأنّه يختبئ من أجل الإعداد لضربة قاصمة.

لقد كُنتَ مريضا، لذلك أنت تتخيّل أشياء [غريبة].

Scanned with CamScanner

لكنّ آماد يعرف تماما بأنّ أخاه على حقّ. لقد لمح أمّه من نافذة غرفته. فناداها لكنّها ابتعدت. اعتقد آماد أنّها كانت تبكي. رآها تختفي وراء نباتات الأَمَاريليس [(1)] . تلك الّتي غرستْها جدّتهما شاهينة منذ سنة مضت. ها قد صارت عملاقة في الوقت الحاضر. وقد التهمت أزهارها المتفتّحة ما يكفي من ضوء. نزل آماد وعزيز إلى الطّابق الأرضيّ. لم تكن أمّهما قد أعدّت فطور الصّباح بعد. ولم يتمكّن والدهما من النّوم، عرفا ذلك من خلال وجهه المتعب. كان جالسا على أرضيّة المطبخ. ماذا يفعل هنا، وحيدا؟ هي المرّة الأولى الّتي يرى فيها الولدان أباهما جالسا على أرضيّة المطبخ.

هل أنتما جائعان؟

لا.

لكنّهما كانا جائعيْن. وكان بالقرب من ولدهما كيس من الخيش.

ما هذا؟ سأل عزيز هل نسيَه رجال سيّارة "الجيب"؟

لم ينسوْهُ. أجاب زاهد.

أومأ لولديه بأن يجلسا بجانبه. ثمّ شرع في التّحدّث عن الرّجل صاحب المدفع الرشّاش:

إنّه رجل مهمّ، قال لولديْه. هو من القرية المجاورة، واسمه سولاياد. لقد حدّثني بكلّ ما لديه من قلب. أصرّ على رؤية منزل جدّيْكما المهدّم. سوف يصلّي من أجل أن يحلّ السّلام على روحيْهما. إنّه رجل تقيٌّ. رجلٌ

(1). الأماريليس: جنس نباتي ينتمي للبصليّات، تُستخدم للزينة، لها أزهار قمعيّة الشكل، يتراوح لونها بين الأبيض والوردي.

متعلّمٌ. عندما فرغ من شرب شايه، أمسك بيدي. قال لوالدكما: «كم هو هادئ منزلك! أُغْمِضُ عينيَّ ليغمرني عبير البُرتقال. عمل والدك "منير" طيلة حياته على هذه الأرض المقفرة. إذْ كانت مجرّدَ صحراء قديما. لقد حقّق والدك معجزة بعون من الله وحده. فأنبت برتقالا هنا حيثُ لا يوجد سوى الرّمل والصّخور. لا تظنّن أنّي بقدومي إليك وأنا محمّل بمدفعي الرّشّاش، لم أعد أملك عيون أو آذان شاعر. أنا أسمع وأرى كلّ ما هو حقيقيّ وطيّب. أنت رجل ذو قلب شجاع. ومنزلك نظيف. كلّ شيء مرتّب في مكانه. شاي زوجتك لذيذ. أتعرف ماذا نقول عادة عن الشّاي، حلو جدّا وليس حلوا بما يكفي، فالشّاي الجيّد يُشرب ما بين المذاقيْن. لشاي زوجتك مذاق يقع تماما في الوسط. حتّى الجدول الّذي يسيل بين منزل أبيك ومنزلك، يتوسّط المنزليْن تماما. هو أوّل ما نلاحظه ونحن على الطّريق، هذا الجمالَ الواقعَ تماما في الوسط. زاهد، لقد كان والدك معروفا في كامل الجهة. لقد كان رجلا عادلا، وحده رجلٌ عادل من يقدر على تحويل أرض بلا وجه إلى جنّة. لن تخطئَها الطّيور أبدا إذا ما تعلّق الأمر بالجنّة. فهي تتعرّف عليها سريعا، حتّى وإن اندسَّتْ في ظلّ الجبال. أخبرْني، يا زاهد، هل تعرف أسماء الطّيور الّتي يصلُنا تغريدها الآن؟ بالتّأكيد لا. فعددُها كبير وتغريدُها فريد. إنّي أراها من النّافذة بأجنحتها الّتي تَقذفُ شررا زعفرانيّا. لقد قَدِمتْ تلك العصافير من البعيد، البعيد. ها هي الآن بألوانها الّتي تختلط بألوان حقل البرتقال حيثُ دَفنتَ والديْك. وها تغاريدها تتردّد مثل تراتيل قُدسيّة. لكنّ هذه العصافير وهي بلا اسم، هل لها أن تخفّف من ألمك؟ هل بإمكانها أن تعطيَ لحدادك اسما آخر؟ لا. الانتقام هو اسم حدادك. اِصْغ إليّ جيّدا الآن يا زاهد. لقد تهدّمت منازل أخرى في القرى المجاورة. قُتِل عددٌ كبيرٌ من الناس تحت سيل من القذائف والقنابل. يريد أعداؤنا الاستيلاء على أرضنا. إنّهم يريدون أرضنا لبناء منازلهم وتحبيل زوجاتهم. عندما يغزون قُرانَا فإنّهم

Scanned with CamScanner

سيتمكّنون من الزّحف إلى حدود المدينة الكبيرة. سيقتلون نساءنا. سيحوّلون أطفالنا إلى عبيد، وهكذا ستكون نهاية بلدنا. ستتدنّس أرضنا بخطوات أقدامهم وبصاقهم. هل تعتقد بأنّ اللهّ سيسمح بكلّ الرّجس؟ أتعتقد هذا يا زاهد؟» هذا كلّ ما قاله سولاياد لوالدكما.

لم يتجاسر عزيز وآماد على التحرّك ولا على قول أيّ شيء. لم يكن والدُهما قد حدّثَهما من قبل طيلة هذا الوقت. نهض زاهد. خطا بضع خطوات في الغرفة. همس آماد لأخيه:

إنّه يفكّر. إذا ما مشى بهذه الطريقة، فمعنى ذلك أنّه يفكّر.

بعد برهة طويلة، فتح زاهد الكيس الذي تركه رجال سيّارة "الجيب". كان في داخله حزام غريب وقد بسطه. كان ثقيلا جدّا لدرجة أنّه اضطر إلى رفعه بكلتا يديه.

لقد جلبه سولاياد، أضاف زاهد بقوله لوَلَديْه. لم أفهم في البداية ماذا كان يُريني.

دسّ حليم الحزام. وقتها فقط أدركت لماذا أتى هؤلاء الرّجال لرؤيتي. دخلت علينا أمّكما. كانت تحمل مزيدا من الشّاي. نظرت إلى حليم وشرعت في الصّراخ. قلَبتْ الطّبق. سقط إبريق الشّاي على الأرضيّة وانكسر كأسٌ. طلبتُ من أمّكما جمع كلّ ما تكسّر، وجلْب شاي آخر. اعتذرتُ لسولاياد. ما كان على أمّك أن تصرخ.

أراد عزيز لمس الحزام لكنّ زاهدا صدّه. أعاد الحزام إلى داخل الكيس وغادر الغرفة. راقبه آماد وعزيز من النّافذة وهو يختفي وسط حقول البرتقال.

Scanned with CamScanner

لا تتحدّث تمارا كثيرا مع زوجها. في الحقيقة، هي تُفَضِّلُ صَمْتَهُمَا على خصوماتهما المتكرّرة. كانا يحبّان بعضيْهما كما ينبغي أن يتحابّا تحت أنظار الله والنّاس.

من عادة تمارا أن تذهب إلى الحديقة قبل أن تلتحق بزوجها لتجده غارقا في النّوم. كانت تجلس على مقعد قبالة زهور برّية وتغرق في استنشاق روائحها العبقة المتصاعدة من التّربة الرّطبة. كانت تستسلم لهدهدة موسيقى تحدثُها الحشرات، وترفع رأسها باحثة عن القمر بعينيْها. كانت تنظر إليه وكأنّها راحت تلتقي بصديقة قديمة. في بعض اللّيالي، كان القمر يبدو لها كأثر ظفر في لحم السّماء. كانت تعشق ذاك الوقت حيثُ تكون وحيدة في مواجهة المطلق. كان طفلاها ينامان. وكان زوجُها ينتظرها في غرفتهما، وربّما هي في الأصل نجمة تضيء على عوالم مجهولة. كانت تمارا تتساءل وهي تتأمّل السّماء إذا ما كان القمر قد عرف متعة الموت، متعة الاختفاء إلى الأبد من صفحة اللّيل ليترك الانسان يتيما من نوره. نوره المسكين ذاك الذي اقترضه من نور الشّمس.

تحت السّماء المرصّعة بالنّجوم، لا تخشى تمارا التّحدّثَ إلى اللهّ. كان لديها الشّعور بأنّها تعرفه أكثر من معرفتها لزوجها. كانت كلماتها الّتي تهمسها تضيع وسط الضّجّة الّتي تحدثها المياه بسريانها في الجدول. غير أنّها لم تفقد الأمل يوما في صعود كلماتها تلك إليه.

عندما غادر رجال سيّارة "الجيب" منزلهم، أصرّ زاهد على تقديم حبّات

Scanned with CamScanner

برتقال لهم وطلب من زوجته أن تساعده على ملء سلّتيْهم الكبيرتيْن. فرفضتْ. ظلت تمارا ذاك المساء لوقت أطول من المعتاد على المقعد حيث تحبّ الجلوس من أجل التأمّل في وحدتها اللّيليّة. لم تجرؤ على لفظ الكلمات الّتي راحت تُلهبُ لسانها. أمّا صلاتها فقد ظلّت صامتة هذه المرّة أيضا: «اسمك يا ربّي عظيم، وقلبي صغير جدّا لاحتوائه كاملا. ماذا ستصنع بصلاة امرأة مثلي؟ بشفتيّ اللّتين بالكاد تلمسان ظِلّ الحرف الأوّل [من اسمك]. لكنّهم يقولون إنّ قلبك أكبر من اسمك. إنّ قلبك كبير جدّا في كونه إلى درجة أنّ امرأة مثلي قادرة على الإنصات إليه في قلبها. هذا ما يقولونه متحدّثين عنك، وهم لا يقولون إلاّ الحقيقة. لكن لماذا يتوجّب علينا أن نعيش في بلد حيثُ لا يقدرُ الزّمن على القيام بدوره؟ ليس للطّلاء الوقت الكافي كي يتقشّر، ولا للسّتائر ما يكفي من الوقت لتبهت ألوانُها، ولا للصحون الوقت كي تتشقّق. لا تتمتّع الأشياء بكلّ وقتها، دائما ما يكون الأحياء أكثر بُطأ من الموتى. يشيخ الرّجال على نحو أسرع من زوجاتهم في بلدنا. هم ييْبسون تماما مثل أوراق التّبغ. إنّه الحقد وحده ما يبقي على عظامهم في أماكنها. في غياب الحقد، سيتهاوون وسط الغبار كي لا يتمكّنوا من النّهوض مجدّدا. ستجعلهم الرّيح يختفون وسط زوبعة ما. لن تبقى سوى حشرجات زوجاتهم متردّدة في عمق اللّيل. استمع إليّ، لديّ ولدان. أوّلهما اليد وثانيهما قبضتُها. أوّلهما يعطي والثّاني يأخذ. أوّلهما اليوم، وثانيهما غدا. فإنّي أتوسّل إليك، بألاّ تأخذهما منّي».

هكذا صلّت تمارا في المساء الذي رَفَضَتْ فيه ملء سلّتيْ البرتقال، هبة زوجها للرّجال الّذين قدموا على متن سيّارة «الجيب».

Scanned with CamScanner

منذ أن تهدّمت مدرسة القرية على إثر القصف، راحت تمارا ترتجل مهنة التّدريس. كانت كلّ صباح تُجلس ولديها في المطبخ، بالقرب من القِدْرِ ذي القعر المسْودّ، وتغرق في استمتاع أكيد بمهنتها الجديدة. دار حديث كثير حول نقل المدرسة إلى مكان آخر، لكن لم يستعلم أحد من القرية عن هذا المكان الجديد. لذلك راحت العائلات تتدبّر أمرها منذ أشهر كلّ على قدر استطاعته. لم يتذمّر آماد وعزيز. فقد أحبّا تواجدهما بين روائح المطبخ حيثُ تتدلّى من السّقف حزمٌ من النّعناع الطازج وإكليل من فصوص الثّوم. حتّى أنّهما تمكّنا من تحقيق تقدّم ما. أصبح آماد أكثر قدرة على الكتابة، وعزيز أيضا، الّذي واجه رغم إقامته في المستشفى جدول الضّرب بكلّ شجاعة.

وبما أنّهُ لم يكن بحوزة الولديْن كتبٌ، فقد خامرت تمارا ذات صباح فكرةُ صنع كراريس من ورق اللفّ المُستعمل، وكان هما، كاتبا المطبخ الصّغيران، بنفسيْهما قد راحا يسوّدان بكتابة قصصهما على الصّفحات المجعّدة لتلك الكتب الغريبة. انخرط الولدان سريعا في اللّعبة، حتّى أنّ آماد استنبط شخصيّة وجعلها تعيش مغامرات مستحيلة. فقد راحت هذه الشخصيّة تستكشف كواكب بعيدة وتحفر أنفاقا في عمق الصّحراء وتصْرَع كائنات في أعماق البحار. وكان قد أطلق عليها اسم "دودي" الّذي جهّزه بفميْن، أحدهما صغير جدّا والآخر كبير جدّا. كان دودي يستخدمُ فمه الصّغير للتّخاطب مع الحشرات والميكروبات. ويستخدم فمه الكبير لبثّ الرّعب في الوحوش التي كان يُقاتلها ببسالة. لكن دودي كان يتكلّم أحيانا باستخدام فميْه معا. لذلك كانت

Scanned with CamScanner

الكلمات التي ينطقها تخرج مشوّهة إلى درجة مضحكة، مبتدعا لكلمات جديدة وجمل مرتعشة من شأنها أن تضحك الكاتبيْن الصّغيريْن اللّذيْن يستخدمان موادّ من العشب لأجل الكتابة. أمّا تمارا فذلك لا يضحكها كثيرا. لكن ومنذ ليلة التّفجير وموت جدّيْهما، لم تعد كراريسهما المرتجلة تحكي إلاّ قصصا حزينة وقاسية. أمّا دودي فقد صار أخرس...

بعد أسبوع من زيارة رجال سيّارة "الجيب"، وصل صوت زاهد البعيد إلى المطبخ حيثُ كان آماد وعزيز يعملان بلا حماس على كراريسهما. كان يناديهما من حقل البرتقال حيثُ كان يقضّي اثنتي عشرة ساعة في اليوم في عزق كلّ شجرة وسقيها وتفقّدها. مع أنّه لم يحن وقت راحته. تخلّى آماد وعزيز عن أقلامهما ليلتحقا بوالدهما راكضيْن، لقد كانا متلهّفيْن لمعرفة ما يريده منهما. خرجت تمارا من المنزل. أشار لها زاهد بالمجيء هي أيضا. أومأت برأسها وعادت إلى الدّاخل. شتمها زاهد أمام ولديها. لم يكن قد فعل ذلك من قبلُ. لم يعد آماد وعزيز يعرفان أباهما. عندما شرع في الكلام، كان صوته أكثر هدوءا من العادة رغم ما حدث. قال زاهد:

لاحظا يا ابنيَّ، كم يبدو النّور نقيّا، ارفعا رأسيكما وتأمّلا، هنالك غيمة وحيدة تسبح في السّماء. هي عالية جدّا وها هي تتمطّط ببطء. بعد ثوان، لن تُصبح أكثر من خيوط ذائبة في الزّرقة الواسعة. راقبا جيّدا. هل تريان، لم يعد لها وجود. لا غير الزّرقة. هذا غريب. لا نسيم هذا اليوم. يبدو الجبل حالما في البعيد، حتّى الذّبابَ توقّف عن الطّنين. كلُّ شيء يحيط بشجرات البرتقال يَتنفسُ بصمت. لِمَ كلّ هذا الهدوء، وكلُّ هذا الجمال؟

لم يجد آماد وعزيز بماذا سيجيبان على سؤال أبيهما المفاجئ. أخذهما زاهد من يديْهما وقادهما إلى أطرف الحقل، إلى المكان الذي دفن فيه والديْه.

Scanned with CamScanner

أجلسهما على الأرض الحارقة.

انظرا، كم يبدو قبر جدّيكما وكأنّه يخبرنا بأنّهما يرقدان في سلام. ما الشرّ الّذي اقترفاه حتى يستحقّان ميتتهما البشعة؟ استمعا إليّ. الرّجل الذي رافق سولاياد ذلك اليوم يدعى "كمال". وهو والد حليم.

ظلّ آماد وعزيز على صمتهما.

حليم. هل تعرفانه؟ ألا تريدان الإجابة عن سؤالي؟ أعلم أنّكما تعرفان حليما. ذلك المساء وعندما صمت سولاياد تكلّم كمال. لم تكن نبرة صوته صارمة مثل نبرة سولاياد. قال لي:

«زاهد، أنت تقف أمام آثم كبير. لا أستحقّ أن أُحظى برفقتك. كما قال سولاياد، أنت ابن محترَمٌ لوالدك منير، الّذي كانت شهرته قد تخطّت حيطان منزله منذ زمن بعيد. يجب أن نكون في وئام مع اللهّ للنّجاح في صنع ما صنعه والدُك بيديه الاثنتيْن. من المؤسف حقّا أن نتأمل منزله المتهدّم. يا للعار! يا للألم! تقبّل صلوات متواضعة من آثم الّذي هو أنا. سأخبّط صدري بنفسي. سوف أصلّي على روحيْ والديك.»

وضرب كمال صدره بقبضته ثلاث مرّات من جهة القلب «بهذه الطريقة!» أكّد زاهد على ذلك، مكرّرا نفس حركة كمال أمام ابنيه.

قال لي كمال أيضا: «لقد باركك اللهّ مرّتين يا زاهد. ابتهجْ، لقد قذفَ في بطن زوجتك ولديْن متشابهيْن. ماتت زوجتي عند ولادتها ابننا الوحيد. حليم هو أثمن ما وهبني أيّاه اللهّ. رغم ذلك، حدث وأن ضربته. انظر، يمكنك رؤية الآثار ظاهرة على وجهه. ضربته عندما أشركني في قراره. أغلقتُ عينيَّ وضربته وكأنّني أضرب حائطا. أغلقتُ عينيَّ لأنّني لم أكن قادرا على ضرب

Scanned with CamScanner

ولدي في ضوء النّهار. عندما فتحتُ عينيَّ، رأيتُ الدّمَ. أغلقتُ عينيَّ مرّة أخرى وضربته أقوى. فتحتُ عينيَّ. لم يكن حليم قد تحرّك من مكانه. ظلّ واقفا أمامي وعيناه مغرورقتان بدموع حمراء. ليغفر لي الله. فما أنا إلا آثم بائس. لم أفهم شيئا! لم أرد تفهّم قراره».

«أمّا الآن فأنت، تتفهّم قرار ابنك»، قال سولاياد لكمال قبل الذّهاب لجلب الحزام من سيّارة "الجيب".

خلال غياب سولاياد، انحنى حليم نحوي وتحدّث إليّ وكأنّه يُطلعني على سرّ مهمّ:

«زاهد استمع إليّ. قبل لقائي بسولاياد، كنت ألعن أمّي. ألعنها [وألعن] أنّي لم أمت معها. لماذا أولَدُ في بلد ما زال يبحث عن اسمه؟ لم أعرف أمّي ولن أعرف بلدي أبدا. لكن سولاياد قَدِم إليّ يوما ما وحدّثني. قال لي: "أعْرِفُ والدك، كنت ألجأ إلى ورشته لأصلح أحذيتي. كمال حرفيّ ماهر. يقوم بعمله بشكل جيّد. وكان يكتفي بطلب ثمن كدّه لا أكثر. لكنّه رجل تعيس. وأنت ابنه، أنت أكثر تعاسة منه. حليم، إنّ ذكر اسم الله وحده لا يكفي. لقد تأمّلتك خلال الصّلاة. أين قوّتك؟ لماذا تأتي للسّجود بين إخوانك وتتضرّع إلى الله؟ إنّ فمك فارغ مثل قلبك. من الّذي ينتظر مأساتك، حليم؟ قل لي، من هذا الّذي بإمكانه أن يقتات من شكواك؟ لقد بلغتَ الخامسة عشر من العمر ولم تفعل شيئا بعد بهذه الحياة الّتي وهبك إيّاها الله. أنت في نظري لا تستحقّ أفضل ممّا يستحقّه أعداؤنا. تُضعفنا رخاوتُك وتُشعرنا بالخزي. أين غضبُك؟ أنا لا أسمعه. إصغِ إليّ حليم: أعداؤنا كلاب. إنّهم يشبهوننا، هل تعتقد، إنّهم كذلك لأنّ لهم وجوها بشريّة. هذا عين الوهم. انظر لهم بعيون أجدادك وستدرك من أيّ شيء

Scanned with CamScanner

صُنِعَتْ هذه الوجوه في حقيقتها. لقد قُدّتْ من موتنا. في وجه عدّو واحد يمكنك رؤية فَنَائنا ألف مرّة. لا تنس هذا أبدا: كلّ قطرة من دمك هي أثمن ألف مرّة من ألف وجه من وجوههم».

عندما عاد سولاياد بالحزام، كان الصّمت قد استولى على اللّيل». هذا آخر ما قاله زاهد لولديْه المصغييْن إليه وهما جالسان في الظلّ الخفيف لحقل البُرتقال. كان آماد وعزيز وهما منبهران بسرد والدهما، قد أيقنا بأنّ الحياة في الحقل لن تكون هي نفسها. كانت هذه هي المرّة الثّانية التي يكلّمُهما بهذه الصّرامة وفي غضون أيّام قليلة، هو الّذي كان شحيحا في تحدّثه إليهما. نهض واقفا بعناء وأشعل سيجارة. راح يُدخّن ببطء، وكان مع كلّ نفس يُعطي الانطباع بأنّ أفكارا ثقيلة ومضطربة تعتمل داخل رأسه.

حليم سوف يموت. أعلن زاهد فجأة وهو يسحق سيجارته. عند منتصف النّهار تماما، عندما تكون أشعّة الشّمس في ذروتها، سيموتُ حليمٌ.

جلس زاهد بالقرب من ولديْه. وظلّ ثلاثتُهم ينتظرون في صمت وصول الشّمس فوق رؤوسهم تماما. عند منتصف النّهار، طلب زاهد من ولديْه أن ينظرا إلى الشّمس. فعلوا ذلك. أُطبِقت أعينُهما في بادئ الأمر. ثمّ نجحا في إبقائها مفتوحة. اغرورقتْ أعينهُما بالدّموع. ثبّت والدهما نظره على الشّمس لوقت أطول منهما.

«حليم يقف الآن بالقرب من الشّمس».

لماذا؟ سأل عزيز.

كلاب بثياب. أعداؤنا كلاب ترتدي ثيابا. إنّهم يحاصروننا. لقد أغلقوا في الجنوب مدننا بجدران حجريّة. إلى هناك كان حليم قد توجّه. لقد عبر الحدود. كان سولاياد قد شرح له كيفيّة القيام بذلك. لقد عَبَرَ مستخدما نفقا سرّيا. ومن

Scanned with CamScanner

ثمّة استقلّ حافلة مزدحمة، وفي تمام منتصف النّهار، فجّر نفسه.

لكن كيف؟

بحزام ناسف يا عزيز.

مثل ذاك الّذي رأيناه؟

أجل آماد. مثل ذاك الّذي رأيتموه في الكيس. أصغيا إليّ جيّدا، قبل أن يغادر سولاياد اقترب منّي ووشوش في أذني أمرا ما. قال لي: «الديك ولدان. وقد وُلِدَا أسفلَ الجبل الّذي يحدّ بلدنا من الشّمال. قلّة من الناس يعرفون أسرار الجبل بقدر معرفة ولديْك به. ألم يجدا سبيلا للنّفاذ إلى الجهة الأخرى؟ لقد فعلا ذلك، أليْس كذلك؟ ربّما تتساءل كيف علمت بالأمر. هو حليم من أخبرني، وهما ولداك من أخبراه ذلك بنفسيْهما».

وهو يقول ذلك، عمد إلى المسك فجأة بولديه من رقبتيْهما. كان يُمسك بآماد بيده اليُمنى وعزيز باليسرى. رفعهما من على الأرض. كان مثل مجنون. بدا لآماد وعزيز بأنّ الأرض قد بدأت بالارتجاج، وأنّ حبّات البرتقال من حولهما ستبدأ بالتّساقط من أغصانها بالآلاف.

أ هذه هي الحقيقة؟ صَرَخ والدهما، بماذا أخبرتُما حليمًا؟ لكن ماذا قلتما لهذا الصّبيّ الّذي فجّر نفسه للتوّ؟

كان آماد وعزيز عاجزيْن عن الكلام، وشرعا في البكاء.

دخل زاهد في تلك إلى غرفتيْهما. كانا في مخدعهما. انحنى عليهما. كان جسده يشكّلُ في العتمة كتلة مشوّهة ومخيفة. تكلّم بصوت خفيض. سألهما إن كانا نائمين. لم يجيباه، لكنّهما لم يكونا نائميْن. واصل زاهد وشوشته.

قال:

رَجُلَايَ الصّغيران، الله عليم بما يعتمل داخل قلبي. أنتما أيضا تعلمان.

Scanned with CamScanner

لقد كنتما دوما مبعث فخر بالنّسبة إلي. أنتما ولدان مقدامان. عندما هوت القنبلة على منزل جدّيكما، أظهرتما شجاعة كبيرة. أمّكما فخورة جدّا بكما. لكنّها لا تريد أن تفهم ما يحدث في بلدنا. لا تريد أن ترى الخطر المتربّص بنا. إنّها تعيسة جدّا. لم تودّع سولاياد عندما غادر. إنّه رجل مهمّ. وقد شتمته. ما كان لها أن تفعل ما فعلت. سولاياد سوف يعود، أتفهمان ذلك! سوف يعود ليتحدّث إليكما. أمّا الآن فاخلدا إلى النّوم.

طبع قبلة على جبهة آماد. ثمّ على جبهة عزيز، مثلما فعل في المستشفى. عندما غادر ظلّت رائحته عالقة في الغرفة.

Scanned with CamScanner

كان زاهد محقّا. لقد عاد سولاياد سريعا. تعرّف آماد فورا على صوت "الجيب". خرج راكضا من المنزل. أومأ له سولاياد بالقدوم حيث هو. كان وحده هذه المرّة، سأله:

هل أنت آماد أم عزيز؟

أنا آماد.

آه جيّد، آماد. اذهب للبحث عن أخيك عزيز. أريد أن أتحدّث إليكما.

عاد آماد إلى المنزل. لم يكن عزيز قد استيقظ بعدُ من نومه. تسمح له أمّه بالنّوم أكثر لأنّه مريض. رجرجه آماد:

بسرعة، ارتد ملابسك. لقد عاد سولاياد. وهو يريد أن يتحدّث إلينا.

فتح عزيز عينيه، وارتفعت حاجباه من الدّهشة. صار يحيل على جرو صغير.

هل سمعت ما قلته لك؟ حرّك نفسك! سأنتظرك في الأسفل.

أنا قادم. تمتم أخوه الّذي ما زال نصف نائم.

بعد دقائق، راح آماد وعزيز يقتربان من سيّارة "الجيبْ" بخليط من الإثارة والارتياب.

ماذا تنتظران؟ قال لهما سولاياد بابتسامة على شفتيه، اصعدا، لا تخافا.

Scanned with CamScanner

لن آكلكما.

نقل رشّاشه إلى الخلف ليُخليَ لهما مكانا بالقرب منه. عندما انطلقت سيّارة "الجيب"، لمح آماد والده وسط حقل البرتقال. اقترب زاهد من الطريق وظلّ يراقب السيّارة وهي تبتعد.

كان سولاياد يقود بسرعة. أحبّ الولدان ذلك. كان عزيز جالسا بين سولاياد وشقيقه. لم ينبسْ أحدٌ ببنت شفة. غادروا الطّريق ليأخذوا المسار الترابيّ الّذي يؤدّي إلى الجبل. كانت الرّيح تحْدثُ صفيرا. وكان الغبار المتصاعدُ يخز العيون. لمح الولدَان جثّة حيوان. وقد تفاداها سولاياد بضربة من المقود. استفسر آماد عن ماهيّتها. اكتفى سولاياد بهزّ كتفيه. بعد دقائق معدودة، توقّفت سيّارة "الجيب" فجأة. لم يعد بإمكانهم الذّهاب إلى أبعد. انتصب الجبل أمامهم سادّا الأفق بكتلته المزرقّة. خرج سولاياد من سيّارة "الجيب". خطا بضع خطوات.

ماذا يفعل؟ سأل آماد شقيقه بصوت خافت.

سمعا بغتة صوت سريان ماء. قال عزيز كاتما ضحكته:

إنّه بصدد إفراغ مثانته.

بعد برهة بدت لهما طويلة جدّا، عاد سولاياد للجلوس وسط سيّارة "الجيب". أشعل سيجارة. وأخذ نفسا طويلا وهو يصوّب نظره ناحية الجبل القريب.

قال لهما:

منذ وقت بعيد، اعتدتُ المجيء إلى هنا. عندما كنت في مثل عمركما. كنت أتجوّل على متن دراجة هوائيّة رفقة بعض الأصدقاء. وكنت أتركها على حافّة

Scanned with CamScanner

الطّريق وأغامر بالسّير على القدميْن بين الصّخور. في ذاك الزّمن كان ما يزال هناك ذئاب. لكنّها اليوم اختفت بالكامل. لم يتبقّ هنا سوى الأفاعي. كانت هناك أيضا أجمات من شجرات الأرزّ العملاقة. كانت أشجارا رائعة. لم يبق منها الآن غير حفنة في الجوار. انظرا هناك، يمكننا أن نرى واحدة منها. هل تريان ذلك بالقرب من المنحدر؟ إيه، طيّب، أعرف شجرة الأرزّ تلك، كما قد أعرف أخا لي. إنّ عمرها يقارب الألفيْ عام، وكانت سعادتي الكبرى، وأنا طفل هي أن أتمسّك بأغصانها وأتسلّقها إلى أعلى ما يمكن! لقد كنتُ الوحيد الّذي تمكنّ من القيام بهذه المخاطرة من بين كلّ الأصدقاء. لم أشعر بالخوف حتّى ولو كنت أحيانا أحسُّ بآثار الدوّار. وما إن أتشبّث كما ينبغي بآخر غصن حتّى أمضيَ في تمعّن المنبسط لساعات طويلة. كان يتهيّأ لي بأنّي أتحوّل إلى شخص غيري وأنا في الأعلى. كنت أرى الماضيَ والمستقبلَ في الوقت نفسه. كنت أحسّ بأنّني خالد... وأني بعيد المنال! كما كان بإمكاني تأمّل منحدريْ الجبل بمجرّد لفّة بسيطة من رأسي. وكنت خلال أيّام السّماء الزرقاء، بنظري السّابح مثل جناحي نسر منطلقيْن. لا شيء بإمكانه صدّ [نظري ذاك]. شرقا، كنت أرى أرض جدّك منير الصّفراء. لَكَمْ اعتبرته مجنونا أيّامها. أن تزرع أشجارا في هذه النّاحية من الجبل! لَكَمْ رميته بوابل من الشّتائم. لم أكن أخشى من القيام بذلك، فقد كنت أعرف تماما أنّه لا يمكنه سماعي. ما من أحد بإمكانه سماعي عندما أكون معلّقا بأعلى تلك الشجرة، لا أحد!

توقّف سولاياد عن الكلام وتفحّص السّماء كمن استمع لصوت طائرة مارّة. لم يكن بالسّماء شيء يُذكر، ولا حتّى عصفور. استنشق آخر نفَس من سيجارته. رمى عقبها في الهواء بنقرة من سبّابته ثمّ تناول

Scanned with CamScanner

الرشّاش. انتصب واقفا في "الجيب"، وأفرغ طلقات من سلاحه باتّجاه شجرة الأرز. خنق صوتُ الطّلقات المتواترة نفَس الطفلين. فوجدا نفسيْهما ملتصقين بأرضيّة سيّارة "الجيب". ألقى سولاياد بسلاحه وأمسك بهما من رقبتيْهما، تماما كما فعل والدُهما وسط حقل البرتقال. كانت ذراعا سولاياد بعضلات صَلبة. راحت قوّة هائلة تنبعث من كلّ شخصه.

احزرا قال ذلك بصوت مترع بالفخر، ماذا كنت أرى بعيني الطفل الّذي كنت عندما أدير وجهي إلى ناحية الغرب؟ ليس ذاك الشّريط التّرابيّ القاحل، حيث كسر جدّكما أصابعه. لا! ليس لديكما فكرة عمّا كنت أراه من عَل! كان هنالك في الغرب سهل فسيح أين زرع أجدادنا حدائق مذهلة. لقد كانت الجنّة ذاتها. إنّها معجزة حقيقيّة، أؤكّد لكما! كنّا نلمح من بعيد -وراء صفّ طويل من أشجار الأوكالبتوس- مداخل قرية. وكان سكّانها قد زرعوا أشجار النّخيل ما بين المنازل. كانت أرضنا تمتدّ إلى حدود تخوم سلسلة الجبال العظيمة الّتي كانت تجانب المحيط. كنت أصدح في بُرجي العالي ذاك مردّدا بأعلى صوتي تلك الكلمات الّتي تعود لشاعرنا الكبير «ناهال»:

الفردوس من تراب وماء وسماء

من نظرة لا شيء يحدّها

النظرة تلك هي مادّة الفضاء السرّيّة

فأبدا لن تقتلوها.

لكن لو تسلّقتَ اليوم إلى أعلى شجرة الأرزّ المريضة تلك، ماذا يمكن أن ترى؟ وأنت، هيه، أخبرني! ماذا سترى؟

Scanned with CamScanner

رجّ سولاياد أحد الطّفلين من كتفيه.

حسنا، أنت لا تجيبني؟ ماذا سترى اليوم؟

رجّه إلى أن أوجعه. لم ينطق آماد بشيء.

هل فقدت لسانك؟ عجبي؟

كان آماد مرتعبا. نزل سولاياد من سيّارة "الجيب". خطا بضع خطوات. ثمّ عاد إلى حيث الطّفلين. ركل بجزمته إحدى عجلات السيّارة بعنف. لمع زبد خفيف في إحدى أركان شفتيه.

في النّهاية لقد كان جدّكما منير على حقّ، صاح بكلّ بمرارة، كان قد زرع أشجار برتقال في الجهة الملائمة من الجبل! هيّا، أخرجا من "الجيب"! لا تنظرا إليّ هكذا. أنتما تعرفان جيّدا لماذا أحضرتكما إلى هنا.

دفع سولاياد بالطّفلين إلى خارج السيّارة. أمسك آماد بيد شقيقه الّتي كانت ترتجف.

أنتما تعرفان هذا المكان جيّدا، أعلم ذلك. قبل الانفجارات، كنتما معتادَيْن على ارتياده. حتّى أنّني رأيتكما تتجوّلان يوما بدرّاجتيْكما الهوائيّتين. لقد أتيتما إلى هنا من قبل، أ ليس كذلك؟ كنت متأكّدا. وأعرف لماذا. كنتما قد أخبرتما حليما بذلك، وحليم أخبرني أنا.

لم نخبر حليما بشيء، لقد كان يكذب عليك. سارع آماد بالإجابة

ابتسم سولاياد. وضع يديه على كتفي آماد.

لا تخف، أيّها الصّغير، أنت لم ترتكب شيئا خاطئا.

انفلت آماد. شرع في الجري نحو المسرب التّرابيّ. استدار سولاياد

Scanned with CamScanner

ناحية الطّفل الآخر. سأله إن كان آماد أو عزيزا.

أنا عزيز.

عاود الاستدارة ناحية آماد الّذي كان يهرب وصرخ به:

آماد، آماد، اسمعني. لقد أخبرني حليم عن اليوم الّذي قُطع فيه حبل طائرتك الورقيّة. أعلم كلّ ما جرى خلال ذلك اليوم. إنّ الله عظيم. فهو من قطع حبل طائرتك الورقيّة. صدّق ما أقوله لك يا آماد! لقد قطعه كي تسير الأمور كما يتوجّب عليها أن تسير.

توقّف آماد عن الرّكض. أخذ سولاياد يد عزيز وجرّه خلفه في اتّجاه شقيقه. جلس ثلاثتُهم في ظلّ صخرة.

أتيتما هنا لإطلاق طائرتكما الورقيّة. كلّ أطفال الجوار يعرفون أنّ هذا المكان هو الأمثل للقيام بذلك. لكن لا أحد خاطر بالمجيء إلى هنا منذ التّفجيرات. أمّا أنتما فقد كنتما تأتيان إلى هنا رغم الأخطار المحدقة. انقطع حبلكما. فحلّقت الطّائرة الورقيّة بعد أن تحرّرت، كما لو أنّها أرادت مجاوزة التلّة من أجل أن تلتحم بعظمة المحيط. وفجأة توقّفت الرّيح. كما لو أنّ بالأمر سحر ما. لقد رأيتما الطّائرة الورقيّة تهبط من السّماء لتختفي في الجانب الآخر من الجبل. لذلك ذهبتما للبحث عنها كما لو كانت أثمن شيء في العالم. إنّها من ورق وريح! أتصوّر أنّ طائرتكما الورقيّة كانت خرافيّة بألوانها الكثيرة الفاقعة. ربّما كان لها شكل طائر أو تنّين، أو ربّما شكل يعسوب؟

لا. أبدا. لا شيء من كلّ ذلك، قال عزيز. لقد صنعها لنا جدّنا منير. لا أكثر من ورق وريح كما أسلفْتَ.

حينها بدأتما بتسلّق الجبل. هل أنا محقّ؟ أجيباني!

Scanned with CamScanner

كان يجب أن نعود إلى المنزل بطائرتنا الورقيّة، وإلاّ كان والدنا سيقوم باستجوابنا. أجاب آماد مفسّرا.

نعم، واصل عزيز وهو يقلّد صوت والده: «أين أضعتماها؟ ألا تملكان قلبا؟ تفقدان هديّة جدّكما! أين ذهبتما؟»

كان لينتظر جوابنا واصل عزيز. وكنّا سننتهي بإخباره بكلّ الحقيقة، لا يمكننا الكذب على والدنا.

هذا جيّد، لا يجب مغالطة من وهبكما الحياة.

كان أبي سيقتلنا، لو علم ببلوغنا هذا المكان، أضاف عزيز. كان ينبغي علينا أن نعود بالطائرة الورقيّة. بدأنا بتسلّق الجبل. لم يكن عاليا جدّا. كما كان هنالك شبح طريق يتلوّى بين الصّخور. تابعناه بكلّ سهولة. ضحكنا. بدا لنا من المثير أن نصعد إلى كلّ هذا العلوّ لنرى المنبسطَ في الأسفل، والبقعةَ الخضراءَ لحقل البرتقال، في البعيد.

من يمتلك الشّجاعة ليتسلّق عاليا كمن ينجح في تقبيل حياتِه بطرفة عين وكذلك مماتِه.

ابتسم سولاياد بعدما قال ذلك. ناول الولدين سيجارتيْن. راح ثلاثتُهم يدخّنون جالسين على الأرض التي صارت حارقة أكثر فأكثر رغم بعض الظلّ. كان العرق يلمع على رقبة سولاياد.

في النّهاية كان جدّكما على حقّ. لقد غرس أشجار البرتقال في الجهة المناسبة من الجبل في ذلك العهد. لأنّه وفي الجهة الأخرى منه كان موتانا قد طردوا من قبورهم. ونُكّل بالأحياءِ. هُدمتْ منازلهم. مُحيَت حقولهم وحدائقهم. كان أعداوئنا بانقضاء كلّ يوم، يتقدّمون أكثر في نهش أرض

Scanned with CamScanner

أجدادنا. إنّهم جرذان!

أخذ سولاياد نفسا عميقا من سيجارته.

حسنا يا آماد وأنت يا عزيز. ماذا رأيتما في الجهة أخرى عندما وصلتما إلى القمّة؟

الجهةَ الأخرى من السّماء، أجاب عزيز. رأيتُ الجهةَ الأخرى من السّماء. لم يكن لها حدّ، وكأنّني بعينيَّ قد عجزتا على الذّهاب إلى أبعد منها. بعد ذلك، وبين الغبار الذي أثارته الرّيح، لمحت مدينة في البعيد. كانت مدينة غريبة.

لم تكن مدينةً. لم تكن تشبه مدينة. كانت تنتصبُ بكلّ طَرف من أطرافها أبراج تقذف السّماء بحمم ضوئيّة. قال آماد.

إنّها نقاط مراقبة تابعة لثكنة عسكريّة، هذا ما كنتما قد رأيتماه. كما رأيتما مخازن محاطة بأسلاك شائكة. وهل تعرفان ماذا يوجد بداخلها؟ إنّه مَوْتُنَا. لقد كانوا يخطّطون لذلك منذ سنوات. لكنّ اللهّ كان قد قطع حبل طائرتكما الورقيّة، وها هم الآن يدّخرون موتهم.

لم يفهم آماد وعزيز شيئا من الكلمات الأخيرة لسولاياد، وراح يتساءلان إن لم يكن على وشك فقدان صوابه.

وهل تعرفان ما يمكن أن ترياه في الجهة الأخرى من الجبل. من منكما لا يعرف؟ إنّنا في حالة حرب منذ زمن بعيد. هل أنتما على علم بذلك؟ وهو ما رويتماه لحليم.

أبدا! لم نكن على علم بذلك!

لا تكذب!

Scanned with CamScanner

أخي لا يكذب! صرخ عزيز مُنتفضا. لقد أخبر حليما بأنّ طائرتنا الورقيّة نجحت في طيرانها ووصولها إلى ما وراء الجبل، لا أكثر.

كنت أريد إثارة إعجابه ليس إلاّ. أضاف آماد بصوت يلوّنه البكاء، لقد كان حليم أفضل من يطيّر الطائرات الورقيّة في كلّ المنطقة. أنا لم أرتكب أيّ خطأ.

استمعا إليّ كليكما. ليس من المهمّ كثيرا إن كنتما تعلمان أو لا تعلمان. ومهما تكون حقيقة لحليم. كلّ هذا ليس مهمّا، ليس هذا هو الأكثر أهميّة، ما تلك سوى أمور صبيانيّة. ولْننته منها إلى الأبد. هل تريدان معرفة حقيقة جرى ذلك اليوم؟

انتصب سولاياد واقفا دون دون ينتظر منهما جوابا، وانطلق بخطوات عريضة نحو الجبل.

هيّا، اتبعاني!

***

مشى ثلاثتهم لمدّة تزيد عن عشر دقائق تحت الشمس قبل وصولهم إلى أسفل الجبل.

أتصوّر، أنّكما من هنا كنتما قد شرعتما في تسلّق من أجل استرجاع طائرتكما الورقيّة.

أجل. قال عزيز موافقا

هنا تماما. دقّق أخوه.

نعم، هذا ما كنت أعتقده.

Scanned with CamScanner

أحاط سولاياد الولدَيْن بذراعيه.

أنتما لا تعرفان بأنّه في كلّ خطوة من خطواتكما يمكن لأرجلكما أن تقع فوق لغم. أنتما لا تعرفان ذلك، هاه؟

ومسح سولاياد على رأسيْ الطّفلين.

إنّها معجزة: هذا حقيقة ما حدث ذلك اليوم. لقد قطع اللهّ حبل طائرتكما الورقيّة، ثمّ أرشد الله خطواتكما وسط الجبل.

عادوا أدراجهم في صمت. رغب عزيز في التقيّؤ بسبب السّيجارة التي منحهما إيّاه سولاياد.

وما إن أصبحوا داخل سيّارة «الجيب»، حتّى انفجر سولاياد ضاحكا. التقط قارورة ماء كانت تترنّح بين رجليه. كانت نصف ممتلئة. فتحها وسكب كلّ محتواها على رأسه. سال الماء ليتخلّل شعر رأسه ولحيته وليبلّل قميصه. أخافت ضحكته الولدَيْن. التفت إليهما كاشفا لهما عن ابتسامة عريضة. كانت أسنانه البيضاء جميلة وخالية من كلّ عيب. أدار المحرّك. لم يكن آماد ليجرؤ على إخباره بأنّه يشعر بالعطش هو الآخر. جال بعينيه باحثا عن إمكانيّة تواجد قارورة أخرى مرميّة. لا وجود لأيّ واحدة منها. كان سولاياد يقود أسرع ممّا كان عليه عند الذّهاب. قال بصوت عال، خلال ضجيج سيّارة "الجيب" ونفخ الرّيح:

هل تدركان الآن حقيقة ما أنجزتماه؟ لقد عثرتما على طريق تقودكما إلى تلك المدينة الغريبة. لقد كنتما الوحيدين اللّذين قاما بذلك. كلّ الّذين حاولوا إتيان ما صنعتما انتهوا ممزّقين إلى أشلاء بعبوات ناسفة. سيعود أحدكما إلى هناك خلال بضعة أيّام. إمّا أنت يا عزيز أو أنت يا آماد. سيبقى القرار بيد أبيكما. سوف

Scanned with CamScanner

يحمل من يقع عليه الاختيار حزاما ناسفا. سوف يهبط إلى حدود تلك المدينة الغريبة وسيمحوها من على الوجود إلى الأبد.

وأضاف سولاياد قبل مغادرته:

لقد اصطفاكما اللهّ. لقد باركما الله.

لاذ آماد بالمنزل. وظلّ عزيز يراقب طويلا سحابة الغبار الّتي أثارتها سيّارة «الجيب» عند انطلاقها.

Scanned with CamScanner

منذ أن انشغل الولدان بانتظار سولاياد، أصبح الوقت ثقيلا بغرابة. كانت الدقائق تتمطّط وكأنّها مصنوعة من العجين. سوف يذهب أحد الأخوين إلى الحرب وسيفجّر النّقاط العسكريّة للمدينة الغريبة كما كان سولاياد يسمّيها. ظلاّ يتحدّثان عن الأمر دون انقطاع. على من سيقع اختيار الأب؟ لماذا هذا وليس الآخر؟ أقسم عزيز على أنّه لن يترك أخاه يرحل من دونه. أكّد آماد الشّيء ذاته. كانا مدركين للشّرف الذي منحهما إيّاه سولاياد رغم حداثة سنّهما. لقد وجدا نفسيْهما محاربيْن حقيقيّين فجأة.

ولتمضية الوقت، راحا يلهوان بتفجير نفسيْهما وسط حقل البرتقال. سرق عزيز حزاما قديما من والده وأثقلاه بثلاث علب تصبير مملوءة بالرّمل. كانا يضعانه بالتّناوب، ثمّ يندسّان وسط جلد شهيد مستقبليّ. انخرطت أشجار البرتقال بدروها في لعبة الحرب هذه. فقد تحوّلت إلى أعداء. لقد أصبحت عبارة على طوابير لا متناهية من المحاربين المتأهّبين لرمي ثمارهم القابلة للانفجار تجاه أيّ صوت يُشتَبه في أمره. كان الولدان يتسلّلان بينها، زاحفين على رُكَبِهما ومتسبّبين في سلخها. وفي اللّحظة التي يشغّلان فيها كبسولة التّفجير، الّتي ما هي سوى رباط مهترئ، تقتلعُ الأشجار نفسها من جذوعها بفعل الانفجار وتصعد إلى السّماء في ألف شظيّة قبل أن تعاود السّقوط فوق جثّتيْهما الممزّقتيْن.

وقد حاول آماد وعزيز تخيّل حجم الصّدمة في تلك اللّحظة الحاسمة.

Scanned with CamScanner

هل تعتقد أنّنا ستتألم؟

لا، يا آماد.

هل أنت واثق؟ وحليم؟

ماذا عن حليم؟

لا بدّ وأنّ قطعا صغيرة من جسد حليم متناثرة في كلّ مكان الآن.

أتصوّر ذلك.

هل تعتقد أنّ هذه مشكلة؟

لماذا مشكلة؟

من أجل الصّعود إلى الأعلى.

فكّرْ مليّا، آماد. لا يهمّ ما يحدث على الأرض. فحليم الحقيقيُّ، حليم الكامل، هو الآن ميقم في الأعلى.

هذا ما أفكّر فيه أنا أيضا، عزيز.

ممّ أنت قلق إذن؟

لا شيء. لقد رأيت حلما البارحة. قام أبونا باختياري أنا. وقبل أن أرحل أعطيتُك شاحنتي الصفراء.

أيّة شاحنة صفراء؟

تلك التي رأيتُها في حلمي.

لم يكن بحوزتك شاحنة صفراء يوما.

Scanned with CamScanner

امتلكتَ واحدة في حلمي، وأعطيتك إيّاها. بعدها رحلت بالحزام.

وأنا؟

ماذا؟

ماذا فعلتُ عندما ذهبتَ أنت مع الحزام؟

ظللتَ تلعب بالشّاحنة الصّفراء.

حلمك أحمق، يا آماد.

أنت هو الأحمق!

نظر التّوأمان إلى بعضهما البعض في صمت لبرهة طويلة. كان كلّ واحد منهما يحاول أن يخمّن بما يفكّر الآخر. لمح عزيز دموعا تتصاعد في نظرة أخيه.

عزيز، هل تسمع أصواتًا أحيانا؟

ماذا تريد أن تقول؟

أعني أصواتا تتردّدُ داخل رأسك.

لا، آماد.

مطلقا؟

مطلقا.

خاب أمل أماد بردّ أخيه.

في البداية كان يعتقد أنّ العالم بأسره يسمع أصواتًا ترنّ داخل رأسه. «هذا إذا ما كانت هذه هي مجريات الأمور...» لكن مع مرور الوقت، توصّل آماد إلى خلاصة تفيد بأنّه قد يكون الوحيد في هذا الكون الذي يعيش ظاهرة كهذه. لا

Scanned with CamScanner

أحد من حوله أفاده بأنّ أمرا كهذا بإمكانه الحدوث. لمرّة واحدة أسعفته شجاعته، للتحدّث في الموضوع مع جدّته شاهينة، لكنّه لم يتمكّن من ذكر ولا كلمة من تلك الكلمات الغريبة التي راحت تخترعها تلك الأصوات دون الإعلان عن نفسها.

كانت الأصوات تتعاقب في عمقه وفق نسق عشوائيّ، فكانت تقْلبُ الكلمات أو تكرّر إلى ما لا نهاية له الجُمل الّتي يردّدها لتوّه أو تلك الّتي تنطق بها أمّه أو أخوه خلال السّهرة. كان آماد يحسّ بأنّ نسخة مصغّرة منه تربضُ داخله، هي عبارة عن نواة من شخصه مصنوعة من مادّة أكثر صلابة من لحمه وهي تملك أفواها عديدة مثل "دودي" الشّخصيّة الّتي ابتدعها. أحيانا كانت الأصوات تعبّر عن نفسها وكأنّها تعلم أشياء أكثر من آماد نفسه. هل تكون لأنّها قد وُلدت قبله؟ هل لأنّها عاشت في مكان آخر قبل أن تأتي للحلول بداخله؟ أو ربّما لأنّها كانت تسافر حين ينام لتراكم معارف لا يمكن له أن يبلغها؟ أو لعلّها تتقن لغات أخرى مختلفة عن لغته وأنّها تريد رغم تشويهها المتكرّر للكلمات وطرقها لها دون سبب وجيه أن تطلعه على أمور مهمّة؟

أمضى زاهد أيّاما عديدة في جمع حطام منزل والديه. نظّف كلّ السّاحة. استعاد عددا من الصّور، بعض الملابس وبعض الأواني. لكنّه لم يحتفظ ببعض الأثاث الّذي ما زال قابلا للاستعمال. ساعدته تمارا بقدر استطاعتها. عرض الولدان مساعدته لكنّ والدهما طردهما. زوج وزوجة راحا يعملان في صمت. هو صمت شاقّ وثقيل. لعدّة مرّات همّت تمارا إلى فتح فمها ولمرّات أكثر كبحت جماح جمُلِها. وكانت تحسّ بأنّ زاهد يعيش الحالة نفسَها. قدمت شاحنة لجمع ما تبقّى من جدران البيت. لا شيء تبقّى عدا الأرضيّة وعليها لطخات من الدّم.

Scanned with CamScanner

أمسك زاهد يد زوجته. لم تفهم ما الّذي كان يريد فعله. طلب منها أن تجلس وهو يرى انفعالها. امتثلت لطلبه. جلس بالقرب منها على الأرضيّة المحرومة من جدرانها، والّتي هي في حالة حداد على سكّانها [الماضين]. رغبت تمارا في الضّحك. تهيّأ لها بأنّ منزل صهريها قد جرفته الرّيح، وأنّهما، هي وزوجها، على وشك أن يُقتلعا بدورهما من الأرض وأن يغادرا فعلا.

هو زاهد من عمد إلى كسر حاجز الصّمت:

سيكون آماد. هو من سيحمل الحزام.

توقّف قلب تمارا.

أعرف فيما تفكّرين، واصل زاهد كلامه بصعوبة. أعرف ما ترغبين قوله لي. لقد فكّرتُ، فكّرت بعمق. لن يكون عزيزا. سأحزّ بالخزي يا تمارا. لن أتمكّن من العيش لو طلبت من عزيز أن يحمل الحزام. لن أكون قادرا بعدها على مخاطبة الله. نعم يا تمارا، لقد فكّرت طويلا في كلّ هذا. لقد جعلتُ السّؤال يدور في خاطري آلاف المرّات و...

لكن عزيز سوف... حاولت تمارا أن تقول دون أن تقدر على إنهاء جملتها.

أجل، عزيز سوف يموت. أعرف ذلك كما تعرفينه أنت. لقد كنتُ من نَقَل لك تقرير الطّبيب. لن يكون من قبيل التّضحية لو تكفّل بحمل الحزام. ستكون مجرّد إهانة. وستعود بالوبال علينا. كما أنّ عزيزا لن يتمكّن من النّجاح وهو في حالته الصحيّة الرّاهنة. لا يا تمارا، إنّ جسده ضعيف. لا يمكن أن يكون عزيزا. لن ندفع بطفل سقيم إلى الحرب. لن نضحيّ بطفل هو مُضحّى به في الأصل. حاولي إعادة صياغة الأمر بكلماتك الخاصّة يا تمارا، وستتوصّلين حتما لنفس النّتيجة. هو آماد من سيذهب.

Scanned with CamScanner

بكت تمارا نافية بحركة من رأسها، وهي في تمام العجز عن الكلام.

لماذا جاء سولاياد حسب رأيك ليقدّم لي تعازيه وهو مرفوق بكمال؟ استمعي إليّ، لقد فَقَدَ ذاك الرّجل زوجته على إثر ولادة طفله الوحيد. وقد وافق على التّضحية به.

نهض زاهد. راقبته تمارا وهو يختفي منحنيَ الظّهر بين حقول البرتقال. هي لم تتفاجأ. كانت تعلم أنّ زاهدا سيختار آماد. لقد كانت دائما عليمة بذلك في عمقها. وهو ما جعلها خرساء من شدّة الألم.

في ذلك المساء، راحت تتأمّل القمر وهي في الحديقة كي تتشبّع بنوره البعيد. وهنا تذكّرت فجأة أغنية. كانت أمّها تهمسها في أذنها كي تنام:

سنصير يوما نورا

سنحيا بعيون مفتوحة دائما

لكن هذا المساء، عليك يا صغيرتي، أن تغمضي جفنيك.

تسرّب شعور بالبرد إلى بطنها. فاعتقدت أنّها مريضة. لكنّ البرد الّذي من عادته أن يهبط إلى الأسفل، قد صعد إلى شفتيها ولسانها. وتركّبت كلمات متجمّده في فيها. أدركت وقتها بأنّ الأوان قد تأخّر جدّا. لا شيء قادر من هنا فصاعدا على أن يذيب تلك الكلمات ولا الفكر الّذي تتضمّنه. انتظرت إلى أن خيّم اللّيل على المنزل، ثمّ صعدت دون أن تُحدث ضجّة إلى غرفة الولديْن. سمعت صفير تنفّسهما. كانا نائميْن بعمق. اقتربت من سرير آماد ووضعت يدها على جبينه. انتظرت حتّى يستفيق. عندما فتح عينيه، أخذت يده بحنان.

Scanned with CamScanner

لا تقل شيئا، لا توقظ شقيقك واتبعني.

خرجا من الغرفة مثل السُّرّاق. عادت رفقة آماد إلى الحديقة. جلسا على المقعد المقابل للزهور البرّيّة، «المقعد ذو القمر» كما تحبّ تمارا أن تسمّيه سرّا. لا يَبْدُو آماد متفاجئا كثيرا من إيقاظ أمّه له ولا من سحبها له خارج المنزل. كان جفناه بعدهما مثقلتيْن بالنّوم.

استمع إليّ، يا آماد. قريبا سوف يدخل أبوك إلى غرفتك دون أن يحدث ضجيجا حتّى لا يوقظ شقيقك، سيقترب منك وسيضع يده على رأسك مثلما فعلت أنا منذ قليل. أمّا أنت فسوف تفارق نومك ببطء وستفهم وأنت تحملق في وجهه المنكبّ على وجهك بأنّه اختارك أنت. أو هو سيأخذك من يدك ليصطحبك إلى حقل البرتقال ويجلسك تحت شجرة ليتحدّث إليك. أجهل حقيقة كيف سيعلمك والدك بالأمر، لكنّك ستعرف الحقيقة حتّى قبل أن يحرّك فمه. هل تعرف ماذا يعني هذا؟ لن تعود أبدا من الجبل. لا أعلم شيئا عمّا دار بينكما وبين سولاياد لكنّني خمّنت ذلك. قال أبوك إنّه رجل يتنبّأُ بالمستقبل. وهو رجل مهمّ يحمينا من أعدائنا. يحترمه الجميع ولا يجرؤ أحد على عصيان أوامره. أمّا والدك فيخشاه. أنا ومنذ أن رأيته أوّل مرّة عرفت بأنّه متغطرس. ما كان على أبيك أن يقبل بتجاوزه عتبة منزلنا. من وهبه حقّ الدّخول على النّاس ليأخذ مهم أطفالهم؟ لَسْتُ مغفّلة. أعرف جيّدا أنّها الحرب، وأنّها تتطلّب تضحيات. وأعرف أنّكما أنت وأخوك ولدان شجاعان. كنتما قد أخبرتما والدكما بأنّ الأمر سيكون مشرّفا لكما وأنّ واجبكما يكمن في حمل هذا الحزام. لقد أعاد على مسامعي كلماتكما. فأنتما مستعدّان لاتّباع خطى حليم والآخرين. وإنّ أباكما مضطرب، مع أنّه فخور بإصراركما. لقد وهبنا الله أفضل طفلين في العالم. لكنّي يا آماد، لستُ أفضل أمّ في العالم. هل تتذكّر قريبتي «هجمي»؟ هل تتذكرها؟ أ

Scanned with CamScanner

ليس كذلك؟ تلك الّتي كانت مريضة. تبيّن أنّ عزيزا يعاني من نفس مرضها. فعظامها في طريقها إلى الاندثار. وكأنّها تذوب داخل جسمه. أخوك سيموت يا آماد.

لا أُصَدِّقُكِ.

لا تتّهم أمّك بالكذب. لقد أخبر طبيب المدينة الكبيرة والدك بذلك. من المحتمل ألاّ يشهد أخوك موسم الحصاد القادم. لا تبكِ حبيبي. أعرف أنّ الأمر قاسٍ جدّا، لكن أرجوك لا تبكِ.

أمّي.

اسمعني، آماد. اسمعني. لا أريد أن تكون من يحمل الحزام.

ماذا تقولين؟

لا أريد أن أخسر ولديَّ معا. تحدّث مع أخيك، أقنعه كيْ يأخذ مكانك.

أبدا!

قل له إنّك لا تريد حمل الحزام.

هذا ليس صحيحا.

قل له إنّك تخاف.

لا!

أوّاه! صغيري آماد. سيكون عزيز أكثر سعادة لو يموت هناك! هل تعلم ماذا ينتظره خلافا لذلك؟ سوف يموت على سريره بأوجاع مبرّحة.

Scanned with CamScanner

لا تحْرِمْهُ من موت مشرّف، حيثُ سيتقبله اللهّ بكلّ أمجاد الشّهيد. أرجوكَ، اطلب من عزيز أن يأخذ مكانك. لا تخبر أحدا بذلك خاصّة والدك. سيكون هذا سرّنا إلى آخر حياتنا.

عاد آماد للنوم مثل شبح صغير مترنّح. بقيتْ تمارا جالسة على المقعد ذي القمر. كانت تحاول بكلّ جهدها أن تخفّض من طرقات قلبها. بعد برهة طويلة، مدّت يدها إلى أقرب زهرة. وراحت تداعب بتلاتها بأطراف أصابعها. خُيّل لتمارا أن ترى قلب الزّهرة وهو يخفق. "عطر الزّهور هو دمها، قالت لها شاهينة ذلك مرّة. الزّهور شجاعة وكريمة. إنّها تنشر دمها دون أن تكترث لحياتها. لهذا السبب هي تذبل بكلّ تلك السّرعة، وهي مرهقة من منح بهائها إلى كلّ من يريد التّنعّم برؤيته». كانت شاهينة قد غرست شُجيرة الورد هذه منذ ولادة التوأمين. لقد كانت هذه طريقتها للاحتفاء بمقدم حفيديْها. نهضت تمارا فجأة من المقعد وشرعت في انتزاع تلك الزّهور. أُدميت يداها وقد جرّحتها الأشواك. أحسّت بأنّها بشعة. هذه الفكرة البغيضة، لقد عبّرت عنها بصريح العبارة: لقد أرسلت ابنها المريض إلى الموت.

صباح الغد، أيقظ صوتٌ ما آمادَ حتّى قبل أن يستفيق شقيقُه. وكان تفاجؤه كبيرا بأن يكون [لذاك الصّوت] نفس اللّكنة والوتيرة الّتي تميّزُ صوتَ حليمٍ. ليس في الأمر خطأ إنّه هو، صوتُ حليم. راح يتردّد داخله دون أن يتوجّه إليه فعليّت، لكأنّه أغنية من تلك الأغاني الّتي يصدح بها شخص لا يحتاج لمن يسمعه حتّى يُوجدَ.

«انقطع حبلي...انقطع حبلي...» راح يكرّر صوتُ حليم.

اعتقد آماد للحظة من الزّمن، أنّ الشّابّ صاحب الحزام قد عاد من بلد الموتى ليجد نفسه في الغرفة.

Scanned with CamScanner

«انقطع حبلي... لم يكن خطأ الريح... صوت فظيع قطع حبلي... أذناي تنزفان... لم أعد أسمع شيئا...»

انتصب آماد فوق سريره ونظر حوله. لم ير أحدا في عتمة الغرفة، لكن كان يدرك جيّدا أنّه لن يجد إلاّ أخاه نائما إلى جانبه في الغرفة.

«إنّني أقترب من الشّمس... إنّي أصعدُ... إنّي أصعدُ... لم يكن بسبب الريح... إنّه خطأ الضّجيج... لم أعد أسمع شيئا ولم أعد أرى الأرض... ابتلعني بياض الغيوم... لم يعد بإمكان أحد أن يراني...»

وضع آماد يديه على أذنيه، لكن الصّوت تردّد أعلى وأعلى.

«صوت قاس قطع حبلي... إنّني أحترق... وحيدا في السّماء الرحبة... لن أعود أبدا... إنّني أحترق... وحيدا في غياب الرّيح...».

نهض آماد واقترب من نافذة غرفته. كان الوقتُ فجرا. راحت أشعّة الشّمس الأولى تُداعب أعالي أشجار البرتقال الّتي يلمحها من بعيد. راح يراقب السّماء وهي تصبح زرقاء شيئا فشيئا. بدأ الصّوت بالتّلاشي تدريجيّا. عندما خمد نهائيّا، عاد للنّوم. راح يسمتع لدقّات قلبه. احتضنَ عزيزا بقوّة، ضغط بجسده على جسد أخيه وكأنّه يريد أن يختفي داخله.

هل كان يحلم أم هي أمّه قد أخبرته فعلا بأنّ عظام شقيقه في طريقها إلى الذوبان؟ هل كان يحلم أم هي أمّه قد أخبرته فعلا أنّه من المستحسن أن يفجّر أخوه عظامه في الجهة الأخرى من الجبل؟ فجأة بدا له أنّ الجسد الذي يحضنه في منتهى الهشاشة... لا، لن يسمح لعزيز أن يضع حزام المتفجّرات بدله.

استفاق عزيز ودفعه فجأة.

Scanned with CamScanner

ماذا تفعل، آماد؟

لا شيء. انهض، لقد تأخّر الوقت.

Scanned with CamScanner

لم يغيّر الموت الشّنيع الّذي أودى بحياة والديْه من روتين زاهد اليوميّ، على العكس تماما، فقد واصل عمله بأكثر ضراوة. لقد أصبح حقل البرتقال ذا مكانة أرقى في نظره. فقد أصبح الآن يمثّل الضّريح حيث ترقد رفات والديه. أصبح يتفقّد كلّ شجرة، ينزع الأغصان المريضة ويسقي التّربة شاعرا بأنّه بصدد تأدية واجبات مقدّسة. كان العطر المنبعث من الأرض يُشعره بالاطمئنان، يجعله يعتقد بأنّ المستقبل ما يزال ذا معنى. إنّه يشعر بالأمان بين أشجاره، وكأنّ لا قدرة لأيّة قنبلة أن تخترق الدّرع الّذي تؤلّفه أوراقُها. كان بقلبه حقيقة واحدة: حقوله هي كلّ ما لديه من أصدقاء.

ذاك اليوم، بينما كان متّكئا على شجرة، سمح لدموعه أن تنهمر رغم كلّ شيء. لقد كان يفكّر بوالده منير. ماذا كان سيفعل في مكانه؟ هل كان سيختار آماد أو عزيزا؟ ظلّ ينتظر إشارة من أبيه الرّاحل، وهو جالس تحت أوراق شجرة البرتقال الّتي فرغ من تشذيبها. ظلّ زاهد طوال الصّبيحة يفكّرُ فيما سيقوله لآماد.

«على أيّ حال، انتهى زاهد بأن يقول في نفسه، لا معنى لإرسال أحد إلى الموت ونحن على علم بأنّ هذا الأخير (الموت) قد مسّه بيده الخفيّة. لكن ما الّذي يمكن فعله؟»

كفكف دموعه وغادر حقل البرتقال. بالقرب من المنزل لمح طفليه

Scanned with CamScanner

وهما يلهوان في الحديقة. لقد تركا للتوّ أمّهما بفصلها المرتجل داخل المطبخ. اقترب منهما متردّدا. تفطّن آماد وعزيز لحضوره فذهبا للقائه، وهما مندهشان بألاّ يكون أبوهما في هذه السّاعة بصدد العمل في الحقل. راح زاهد يتأمّل ولديه في سكون، وكأنّه يراهما للمرّة الأولى أو للمرّة الأخيرة. إنّه لم يعد يعلم الكثير عن هذه المشاعر الّتي تسدّ حنجرته. أخذ آماد من يده واصطحبه معه، تاركا عزيز متخبّطا في حيْرته.

إلى أين تأخذني؟

كان يعلم رغم ذلك ما ينوي والده فعله. احتفظ زاهد بصمته ضاغطا بقوّة على يد ابنه. مشيا إلى حدود مخزن المعدّات. ناول زاهد ولده مفتاحا وطلب منه فتح القفل الحديديّ الكبير. امتثل آماد لطلب والده، ثمّ دفع زاهد الباب الخشبيّ الثقيل. عندما دخلا المخزن طار عصفوران فارّين من كوّة مفتوحة في السّقف أعلى رأسيهما. شعر آماد بالخوف للحظة. انغلق الباب وراءهما. اخترق شعاع شمس فضاء السقف من حيث انبعثت ملايين من ذرّات الغبار الّتي راحت تتراقص. وكأنّنا أمام سيف طويل ومتحرّك. وكانت رائحة الزيت والتربة تنبعث الرّطبة.

كنتُ وَضَعْتُهُ هنا، غمغم زاهد.

توجّه إلى ركن من المخزن، ورفع غطاءً بلاستيكيّا قديما. ثم عاد حيث ولده حاملا لكيس الخيش الّذي جلبه سولاياد. تربّع وأجلس آماد قربه.

لا بدّ من حبس الأموات في باطن الأرض، قال ذلك وكأنّما كلّ كلمة يردّدها تنبعث من أعماق الأرض ذاتها... لأنّ الأمر هكذا... هكذا فقط يصعد الأموات نحو السّماء. بحبسهم في باطن الأرض. وهكذا كنتُ قد دفنتُ

Scanned with CamScanner

والديَّ. لقد رَأَيْتَنِي، تناولت مجرفتي القديمة وحفرتُ حفرة. لقد رأيت الدّيدان الّتي ستحتفل بمراسم الدّفن. لا تكمن الصّعوبة في إهالة التّراب على الحفرة من أجل ردمها. لقد رأيتَني وأنا أُحْكِم سدّ الحفرة. الأصعب من ذلك كلّه هو البحث بين الأنقاض. شاهدت من أمّي رأسها المشروخ. لم أتمكّن من لمس طيبة وجهها [كما تعوّدت دائما]. أمّا الدّم فقد كان على الجدران المثقوبة وعلى الصّحون المهشّمة. لملمتُ بيَديّ العاريتين ما تبقّى من أشلاء أبي. كان هناك الكثير منها. طلبتُ منك ومن شقيقك بألاّ تقتربا. طلبتُ نفس الشّيء من أمّكما. لا أحد مضطرّ على فعل ذلك. لا أحد، حتّى أولئك الرّجال الأكثر ذنوبا، لا ينبغي أن يتحمّلوا جمع أشلاء أهاليهم من بين حطام منازلهم. لقد حفرتُ الحفرة الّتي تشطر السّماء شطرين، يقول أجدادُنا. واستمعت لموسيقى الذّباب المضجرة، يقول أجدادنا أيضا. بُنيّ، لا ينبغي أن نخشى الموت.

في تعاقب جمله، كان صوت زاهد يزداد نعومة في عتمة المخزن. راح آماد يرى بأنّه من المزعج والمريح في ذات الوقت أن يصغيَ لأبيه وهو يحدّثه بتلك الطّريقة.

نعيش كلّ يوم بخوف أن يكون آخر يوم. ننام بصعوبة، وعندما نتمكّن منه تلاحقنا الكوابيس. تتهدّم قرى بأكملها كلّ أسبوع. يتزايد عدد قتلانا. والحرب تستعر أكثر، آماد. لم يعد لنا خيار آخر. كانت القنبلة الّتي هدّمت بيت جدّيْكَ قد قدمت من الجانب الآخر من الجبل. هل تعلم ذلك أم لا؟ ستنهال علينا قنابل أخرى من ذاك المكان المعلون. عندما أفتح عينيَّ كلّ صباح وأتحقّق من أن حقل البرتقال ما زال قائما تحت الشمس، أشكر الله على هذه المعجزة. آه يا آماد لو كنتُ قادرا لحللتُ مكانك. أمّك بدورها ما

Scanned with CamScanner

كانت لتتردّد لحظة واحدة عن ذلك. ولا أخوك أيضا. خاصّة أخوك الذي يحبّك كثيرا. سيعود سولاياد. فهو من سيتكفّل باصطحابك إلى أسفل الجبل. سوف يعود قريبا على متن سيّارته "الجيب"، سيكون ذلك في غضون أيّام ربّما أو أسابيع لكن الأكيد سيكون قبل موسم الحصاد. أنت من سيحمل الحزام.

فتح زاهد كيس الخيش. كانت يداه ترتجفان قليلا. لاحظ آماد ذلك رغم الضّوء الخفيف المخيّم على المخزن. تخيّل وهو يراقب والده أنّ هذا الأخير قد انتزع من الكيس شيئا حيّا رماديّا أو أخضر، حيوانا مجهولا وخطيرا.

يجب أن أخبرك بأمر آخر. لم يشف أخوك تماما. لن يتمكّن من حمل الحزام. فجسده ضعيف جدّا. لهذا السّبب اخترتك.

ماذا لو لم يكن عزيز مريضا، من كنت ستختار؟ سأل آماد برباطة جأش فاجأت والده

ظلّ زاهد لبرهة طويلة، غير عارف بما يجيب ابنه الّذي كان قد ندم على سؤاله. كان آماد يعلم تماما بأنّ أخاه ليس فقط مريضا، لكنّه أبدا لن يتماثل للشّفاء. لم تكن تمارا قد تركت مجالا للشكّ فيما يخصّ خطورة مرضه. سيموتُ. مثله تماما حتّى وإن لم يبادل أخاه الدّور.

كان يمكن أن أطلب من حبّات البرتقال أن تقرّر في مكاني.

من حبّات البرتقال؟

هذا ما كنت سأفعله: كان يمكن أن أعطي برتقالة إلى شقيقك وأخرى لك. والّذي يعثر على أكثر عدد من البُذور في برتقالته، يكون هو من يذهب.

ابتسم آماد. نهض زاهد. كانت الطّريقة الّتي وفقها كان يمسك بالحزام النّاسف ما يعطي لهذا الشيء قيمة مقدّسة. أدرك آماد حينها أنّه أبعد من أن

Scanned with CamScanner

يُشبه ذاك الحزام الّذي صنعه رفقة شقيقه من أجل اللّعب. بدا ثقيلا وحقيرا. اقترب آماد منه ولمسه بكلّ حذر.

هل تريدُ حمله؟

أليْس خطيرا؟ تساءل آماد متراجعا خطوة إلى الخلف.

لا. إنّه ليس متّصلا بعدُ بمُفَجِّر. هل تعلم، إنّه ما سيمكّنك من... نهاية، أنت تعلم ما أريد قوله.

يعرف آماد تمام المعرفة ما يعنيه "الـمُفجّر". ناوله والده الحزام.

جعلني سولاياد أفهم بأنّك مطالَبٌ بحبّ الحزام، وأنّه يتوجّب عليك أن تعتبره جزء منك. يمكنك وضعه متى شئت. عليكَ أن تتعوّد على ثقله وعلى لمسه معه. لكن لا تخرجه من هنا أبدا. هل فهمتَ؟ خصوصا، لا تأت إلى هنا برفقة أخيك، هذا ما يمكن أن يزيد الأمور تعقيدا.

أعدك بذلك.

ألستَ خائفا؟

لا. لستُ خائفا، كذب آماد.

أنت ولد شجاع. أنا فخور بك. كلّنا فخورون بك.

خيّم صمت طويل لم يجرؤ خلاله الأب عن النّظر مجرّد النّظر إلى ابنه.

خُذ، أعطيك مفتاح القفل. منذ الآن، يمكنك المجيء هنا وقتما تشاء.

انحنى زاهد نحو آماد وطبع قبلة على جبينه، ثمّ خرج. عندما فتح الباب تسرّب ضوء النّهار إلى المخزن ضربة واحدة ليبهر آماد. عندما أغلِقَ

Scanned with CamScanner

الباب ثانية، وجد نفسه في السّواد الحالك، والحزام بين يديه. كان بالكاد يجرؤ على التّنفّس. فجأة تهيّأت له رؤية وجه سابح في الفضاء.

جدّي، هذا أنت؟

كان آماد واثقا بأنّه لمح وجه جدّه منير. هو يعلم جيّدا أنّه ميّت ومدفون في حقل البرتقال، لكنّ وضوح رؤياه الصّارخ دفعه إلى مناداته ثانية:

أجبني، يا جدّي. هل هذا أنت؟

راح آماد بعينيه المتعوّدتين على الظّلمة، يميّز من جديد بين جدران المخزن والمعدّات الموضوعة فوضويّا على الرفوف. كان شعاع الشّمس المنبعث كوّة السّقف ما يعطي بريقا للمناجل ولمقصّات التّقليم ولأطراف المجارف والمناشير. ألقى آماد نظرة حوله. كانت رؤياه قد تبخّرت نهائيّا. تنفّس بعمق وأحاط الحزام حول كليتيه. تصلّبت عضلاته. خطا بضع خطوات غير واثقة.

أنا الآن جنديٌّ حقيقيٌّ.

لمح عزيز الجالس خلف أجمة في الحديقة والده وهو يخرج من المخزن دون آماد ليستأنف عمله في الحقل. لم يكن قد تفاجأ بخيار أبيه. ظلّ ينتظر دون جدوى خروج آماد خلفه. فقرّر بعد انتظار طويل أن يلتحق به في المخزن. وارب الباب الكبير ببطء.

آماد، ماذا تفعل؟

وبما أنّ آماد لم يجبه فقد خطا خطوة إلى الداخل.

أعرف أنّك هنا، أجبني.

لا تدخل.

Scanned with CamScanner

لماذا؟

اتركني لوحدي.

تقدّم عزيز وميّز طيف أخيه في الجزء المظلم والمتّسخ من المخزن.

ماذا تفعل؟

لا تقترب.

لماذا؟

الأمر خطر.

تسمّر عزيز في مكانه. كان يُصغي لشقيقه وهو يتنفّس بصوت مرتفع.

لكن ما الّذي أصابك؟

لا يمكنني التحرّك.

هل أنت مريض؟

اخرج من هنا.

لماذا؟

أحمل الحزام وإذا ما تحرّكتُ فـــــــ..

أنت غير جادّ!

سينفجر كلّ شيء. أخرج من هنا!

سأذهب للبحث عن أبينا قال عزيز مرتعبا.

هل صدّقتني؟ لكنّك أحمق. انفجر آماد مقهقها وهو يركض في اتّجاه

Scanned with CamScanner

بسرعة شقيقه جعلته يسقط أرضا، كم أنت أحمق، ليس للحزام مفجّر!

أمسك عزيز بساقيْ شقيقه وأسقطه بدوره أرضا. وغرق الأخوان في عراك حامي الوطيس.

سوف أقتلك!

أنا أيضا!

أعطني الحزام، أنا من عليه أن يذهب.

بل أنا من اختاره أبي، أنا من عليه أن يذهب.

أريد أن أجرّبه، اخلع الحزام!

أبدا!

لَكَمَ عزيز أخاه على وجهه. عاود آماد النهوض مصعوقا. أمسك بمنجل طويل موضوع على الجدار.

إذا اقتربت منّي، فسأقطعك إربا إربا.

حاول!

هذا جادّ، يا عزيز.

راح الأخوان يتأمّلان بعضيْهما البعض دون حركة، وهما يصغيان لأنفاسهما اللاّهثة. كانا قد كفّا بالفعل على أن يكونا طفلين. هناك شيء ما قد تغيّر فيهما، كما لو كانت الظّلمة قد زوّدت فجأة جسديْهما اليافعيْن بالغلظة والرّصانة، اللّتين هُما من شأن جسد الكهل وحده.

أخاف أن أموت، عزيز.

Scanned with CamScanner

أسقط آماد المنجلَ، واقترب منه أخوه.

أعرف ذلك. سأذهب أنا.

لستَ قادرا على ذلك.

أنا من سيذهب يا آماد.

لا يمكننا أن نعصيَ أوامر أبينا.

سأحلّ مكانك. لن يعرف أبي ذلك.

سينتهي بأن يكشف الأمر.

لا. ثق بي. هيا اخلعه قال عزيز في توسّل.

تردّد آماد في البداية، ثمّ وبحركة عنيفة خلع الحزام. انتزعه عزيز [من يده] واتّجه صوب عمق المخزن، هناك حيث كان شعاع الشّمس المتسرّب من كوّة في السّقف يُلامس الأرضيّةَ. راح يتأمّل تحت الضّوء المتراقص الشّيء الّذي سيذبح أعداء شعبه، والّذي سيقوده إلى الجنّة في نفس الانفجار. كان مفتونا. كان الحزام متركّبا من حوالي عشرة جيوب إسطوانيّة مليئة بالمتفجّرات.

هل تعتقد أنّ بإمكان الأموات العودة؟

لا أعرف.

أعتقد أنّني رأيتُ جدّي قبل قليل.

أين؟

هناك، قال آماد مشيرا بسبّابته إلى مكان وسط الفضاء الّذي أمامهما.

Scanned with CamScanner

هل أنت متأكّد؟

كان وجهه، لكنّه اختفى سريعا.

لقد رأيتَ شبحا.

عندما تموتُ، ربّما ستعود أنت أيضا.

لنخرج من هنا، ألحّ عزيز بالقول.

أعاد آماد الحزام إلى داخل الكيس القماشيّ الّذي دسّه تحت الغطاء البلاستيكيّ القديم. عندما خرج الأَخَوَان من المخزن، أوجع ضوء النّهار أعينهما.

Scanned with CamScanner

ذهب آماد ليلتحق بأمّه الّتي كانت تُعدّ وجبة العشاء في المطبخ. كانت تقطّع بعض الخضار على لوح خشبيّ. سكبت بعض الأرزّ على ورقة جريدة قديمة واقترحت على ابنها أن ينقّيَهُ. كان آماد يحبّ مساعدة أمّه في المطبخ، حتّى وإن كان أحيانا يحسّ ببعض الخجل. هو ليس بالأمر المعتاد بالنّسبة إلى ولد. في البداية، أوّل ما عرض عليها المساعدة، كانت تمارا قد عبّرت عن تفاجئها بحركة ثمّ رفضت الأمر. لـمّا كرّر طلبه لمرّات، انتهت بالقبول. من وقتها، راحت تستمتع بتلك اللّحظات الّتي تقضّيها مع ولدها ثمّ أصبحت تتوق إليها. عندما تنقضي عدّة أيّام لا يأتي خلالها آماد ليقوم بلمساته الصّغيرة في المطبخ، تساورها شكوك وتتساءل إن لم يكن زاهد قد تحدّث لولده. إنّها تعلم بأنّ زوجها يري أنّه من غير المناسب أن يتصرّف ولد بهذه الطريقة.

كان آماد يركّز على مهمّته. فكان يخلّص كميّة الأرز من الحصوات الصّغيرة ومن الأوساخ. كانت حركاته سريعة ودقيقة. أمّا تمارا فلم تكن لتجرؤ على طرح السّؤال الّذي يحرق شفتيها. كانت تنتظر أن يُكسر ولدها حاجز ذلك الصمت الذي راح يتراكم بينهما بصفة غير معتادة. هذا لأنّ تلك اللّحظات الّتي يتقاسمانها كانت عادة ما تمثّل فرصة نادرة للتّحاور لا يتوفّر في غيرها. كان هذا الإحساس بالتّحالف السّريّ بين الأمّ وابنها ما يثيرُ ضحكات مجنونة. يستغلّ آماد بدوره هذه الفرص للتحدّث عن خالته دليمة الّتي يفتقدها. تمثّل كلّ رسالة من رسائلها الّتي يتلقّاها منها حفلا

Scanned with CamScanner

بالنّسبة إليه. في البداية كانت أمّه من تقرؤها عليه. لكن ومنذ أن أصبح قادرا على تهجية الكلمات، صار يمكن له أن يعيد قراءة رسائل خالته لساعات طوال. كانت تروي له تفاصيل حياتها الجديدة. كانت تصف له المترو، والقطار الّذي يشقّ الأحياء تحت الشّوارع وتحت منشآت المدينة! كانت قد حدّثته أيضا عن الثّلج الّذي كان يغطّي في غضون ساعات أسقف المنازل والّذي كان يُنزل من السماء صوتا قطنيّا. كانت تدهشه وتثير فضوله بإيعاز من الصور القليلة الّتي تدسّها داخل الظّرف. كانت تحرص على عدم إرسال صور زوجها. كان آماد يفضّل خصوصا تلك الصّور التي نرى فيها المدينة وهي مضاءة مساء، أو تلك الّتي تظهر جسورا عالية، النّهر الّذي تعبر فوقه بهياكلها الفولاذيّة، وشريط من الأضواء الوامضة المنبعثة من مصابيح السيّارات. كتبت له خالته يوما أنّها تفكّر بحقل البرتقال كلّما أكلت برتقالات. كانت تتمنّى زيارتها مرّة أخرى لتتجوّل رفقة "آمادها" الصّغير بين صفوف الأشجار، وتستنشق العبق الفوّاح المنبعث من أزهارها البيضاء صيفا!

لقد أُنجز الأمر، قال آماد لأمّه فجأة.

اعتقدت تمارا أنّه أكمل تنقية الأرز. نظرت إلى ولدها وفهمت بكلّ ارتياح أنّه يتحدّث عن عمليّة التّبادل.

هل طلبتَ منه ذلك؟

أجل، اليوم داخل الـ...

هل أطلعته على مرضه؟

لا!

لا ينبغي فعل ذلك.

Scanned with CamScanner

لا! نفّذتُ ما قلته لي بالضّبط.

قلت له أنّك خائف، أليس كذلك؟

نعم، أخبرته أنّني خائف من الموت.

حبيبي آماد المسكين! سامحني! سامحني! أعرف أنّك أشجع من شقيقك. فظيع ما طلبته منك، في منتهى الفظاعة...

لا تبك، يا أمّي.

ما الدّاعي لوضع أطفال في هذا العالم، إذا كنّا سنضحّي بهم مثل حيوانات عجماء نُرسلها إلى المذبح!

كفّي عن البكاء.

لا، أنا لن أبكي. أ ترى ذلك، أنا لن أبكي. لقد فعلنا ذلك من أجل عزيز، هيه، لا ينبغي أن تنسى ذلك. هيا واصل فرز الأرزّ الآن.

كفكفت تمارا دموعها ووضعت قدرا كبيرا فوق النار لغلي الماء.

عليك أن تنتبه لشيء، آماد.

ما هو أمّي؟

لقد نحل شقيقك منذ إصابته بالمرض.

ليس كثيرا.

لكن هذه حقيقة! ألم تلاحظ ذلك؟ لم تعد خدّاه مدوّرين مثل خدّيك. وقد أصبحت شهيّته أقلّ من شهيّتك. راقب صحن شقيقك واحرص على أن تأكل أقلّ منه. أحسّ بحجم بؤسي وقد طلبت منك ذلك، تمام البؤس،

Scanned with CamScanner

لكن عدني بأن تنفّذ ذلك، آماد!

أجل، سأفعل ذلك.

لا ينبغي أن يهتدي أبوك لهذا التّبادل. سيكون الأمر مروّعا لو اكتشف ذلك. إنّي لا أجرؤ حتّى على التّفكير في ذلك.

لا تقلقي. سأصير خلال بضعة أيّام أكثر في نفس نحولة عزيز، ولن يتمكّن أحد من التّفريق بيننا.

أمّا أنا، سأتمكّن دائما من ذلك.

أجل، أنت الوحيدة القادرة على ذلك.

سأكون متفهّمة لو كرهْتَني.

خذي، انتهيتُ من فرز الأرزّ.

شكرا آماد.

لن أكرهك أبدا.

سأجرح نفسي بسكّين.

لماذا؟

سنقوم بالتّبادل في اللحظة الأخيرة.

عمّ تتحدّث عزيز؟

عندما تكونُ على أهبة المغادرة مع سولاياد، سأتدبّر أمري كي أجرح نفسي بسكّين. لكن ليس فعليّا. أمّا أنت، فعلى العكس من ذلك سيكون عليك أن تفعل ذلك حقيقة.

Scanned with CamScanner

لا أفهم شيئا ممّا تقوله.

ما عليك إلاّ أن تقوم بجَرح يدك اليُسرى بشكل طفيف. لا يجب أن تخطئ آماد، عليكَ أن تجرح يدك اليسرى.

موافق. لكن لا أفهم إلى الآن لماذا.

سآخذ دم خروف.

دم خروف! كرّر آماد ذلك وقد تفاقمت حيرتُه.

هذا كي أوهم الآخرين أنّني مصاب. سأضع منه على يدي ثمّ أغلّفه بقطعة من القماش. بعد التبادل، سأغسل يدي. لا أحد سيرى الجرح على يدي. لكن سيرى الجميع جرحك أنت.

لأنّني سأكون مجروحا حقيقة قال آماد الّذي بدأ يفهم إلى أين يريد أخوه الوصول.

هذا هو. وهكذا لن يبقى هنالك مجال للشكّ. ستكون عزيز بيده الجريحة، سأصير أنا آماد المتأهّب من أجل الذهاب مع سولاياد.

عزيز صاحب اليد الجريحة، كرّر آماد متنهّدا.

كان الأخوان ممدّدين على سطح المنزل. بدأت أولى النّجوم بالبزوغ. كانت تثقب السّماء الواحدة تلو الأخرى، قبل أن تثقبها عشرات المرّات بأضوائها المتلألئة. اعتاد آماد وعزيز على الصّعود إلى الأعلى والتمتّع بالنّسيم. كانا يتمدّدان على ظهريهما بجوار خزّان الماء الكبير ويغرقان بنظراتهما وسط اللّيل اللاّنهائيّ.

لا تحزن، آماد. قريبا سأكون هناك في الأعلى. عدني بأنّك ستأتي كلّ

Scanned with CamScanner

مساء إلى هنا لتحدّثني عن يومك.

ما الّذي سيكون عليّ فعله كي أعثر عليك، هنالك الكثير من النجوم؟

تعال، لنذهب إلى النّوم. أشعر بقليل من البرد.

لمس آماد جبين شقيقه. كان حارقا.

هل أنت مريض؟

أنا مرهق فقط. تعال. ربّما يعود سولاياد غدا. لنذهب للنوّم.

خلال الأيّام التّالية، كان عزيز يتصرّف مع شقيقه وكأنّه جينرال صغير بإصداره لأوامر لا تنتهي. كان آماد قد سمح بتوجيهه من طرف أخيه، وهو في تمام الاعجاب بهذا الّذي قريبا سوف يهب حياته.

كان عزيز يكرّر على مسامعه كلّ مرّة بأنّه عليه ألاّ يقلق، وأنّ كلّ شيء سيتمّ على أحسن وجه. كان الأمر بسيطا، عليهما أن يتدرّبا على فعل كلّ شيء بالطّريقة نفسها. حتّى وإن كانا توأمين متطابقيْن، كان والداهما لا يخلطان بينهما إلاّ نادرا. لا غير جدّتهما شاهينة الّتي كانت دائما ما تخطئ في التّمييز بينهما طوال حياتها، إلى درجة أنّهما شكّا في كونها تتعمّد ذلك من أجل السّخرية منهما. على تشابههما إذن ألاّ يكون مجرّد تشابه فيزيولوجيّ، بل عليه أن يشمل أيضا سلوكاتهما أيضا.

أنت! ألا تلاحظُ أنّك تتحرّك مثل عصفور مرتعب.

لا، على الاطلاق! قال آماد مُعترضا.

بل بالتّأكيد! إنّك عصبيّ. أنت لا تتوقّف على القيام بقفزات صغيرة عوض القيام بخطوات.

Scanned with CamScanner

وأنت! إنّك تمشي مثل سمكة ناعسة.

أحمق! السّمكة لا تمشي.

لا لكن لو كانت تمشي، فإنّها ستمشي مثلك!

استمع إليّ، سأتوقّف عن جرِّ رجليَّ. وأنت ستضعهما بعناية على الأرض في كلّ خطوة تخطوها. وهكذا، سننتهي بأن نمشيَ بنفس الشّكل. حاول!

وواصل عزيز تقديم دروس لشقيقه حتّى يتبدّد كلّ اختلاف بينهما. كان قد بيّن لآماد الحركات الّتي ينبغي تجنّبها وبعض النّبرات الصّوتيّة الّتي قد تضع تبادلهما في مأزق. لقد أصبح الأمر لعبة مثل باقي الألعاب، لكن لا فائز في نهايتها. الغريب في الأمر، أنّ عزيزا لم تكن لديه أيّة ملاحظة حول اختلافهما الأكثر وضوحا، ذاك الّذي بسببه سيتمّ التعرّف عليه بكلّ يقين، هذا إذا ما أخذنا وقتنا في تمعّن الأخويْن جنْبا إلى جنب: هزاله. يبدو أنّ عزيزا لم يتفطّن لفقدانه الوزن منذ مرضه. أمّا أماد وكما اقترحت عليه أمّه فقد رتّب أموره كي لا يُنهيَ طعامه، وقد وصل به الأمر إلى وضع البعض منه في صحن أخيه في غفلة منه. كانت تمارا تساعد من حين إلى آخر ولدها آماد بأن تُقدّم له كميّة أقلّ وإعطاء ضعفها إلى عزيز. لكنّها كانت مضطرّة للتوقّف عن ذلك منذ اليوم الّذي لاحظ فيه عزيز بأنّها غير عادلة مع أخيه. فقد خافت من أن يكشف سرّ تواطئها مع آماد. كانت تمارا تلعن نفسها عدّة مرّات في اليوم. وكانت تشعر بالخزي وتأنيب الضمير، وكأنّها قد تآمرت مع أحد أبنائها لتسميم الآخر بجرعات صغيرة، في حين أنّها تحبّهما كليْهما بقلب مطلق. لكنّها كانت مصمّمة على ألاّ تحرمها هذه الحرب الّتي لا نهاية لها من ولديها الاثنيْن [في نفس الوقت]. وبما أنّ آماد لم يكن ينحُل

Scanned with CamScanner

بالسّرعة المطلوبة، فقد اقترحت تمارا عليه أن يقيّئ نفسه بعد وجبة العشاء. وكانت تعرف من خلال حديثها مع زوجها أنّ سولاياد سيعود قبل موسم الحصاد الّذي على الأبواب. آماد، بإصبع في حلقه كان يقيّء نفسه باكيا.

Scanned with CamScanner

شاهدا والديْهما يغادران في إتّجاه القرية. كان أبوهما قد استعار شاحنة من الجار. سيذهبان من أجل شراء الـمُبيدات الحشريّة. كانت تمارا قد أصرّت على مرافقته. فهي تحبّ الذّهاب إلى القرية، لكسر روتينها اليوميّ والالتقاء بنساء أخريات في صدفة التّسوّق. ستجلب بعض الهدايا للولديْن، وبالمناسبة بعض المجلاّت المزوّدة بأشرطة مصوّرة الغالية الثّمن والّتي يصعب العثور عليها.

حين اختفت الشّاحنة نهائيّا عن أنظارهما، أمسك عزيز ذراع شقيقه وجرّه إلى مخزن المعدّات.

تعال حتّى لا نخسر الوقت! هل المفتاح بحوزتك؟

هو دائما بحوزتي.

كان عزيز متشوّقا لرؤية حزام المتفجّرات مرّة أخرى. فتح آماد القفل ملقيا نظرة على الطّريق للتّأكّد من أنّ والده لم يرجع على أعقابه. وما إن فُتِحَ البابُ، حتّى انطلق عزيز إلى آخر المخزن ليُخرج كيس الخيْش من تحت الغطاء البلاستيكيّ.

لنذهب إلى حقل البرتقال!

هذا في غاية الخطورة.

لكن لا، لن يرجعا قبل ساعة على الأقلّ. هيّا آماد، تعال!

Scanned with CamScanner

تبع آماد أخاه، وقد اطمأنّ قليلا. جلسا تحت أوراق شجرة برتقال كبيرة. كان عبيرها يلطّف الهواء. كان هناك بعض النّحل يطنّ أعلى الشّجرة. سحب عزيز بنَفسه اللاّهث الحزام من الكيس.

إنّه ثقيل.

قال لي أبي إنّه وجب التّعوّدُ على وزنه.

أعطني المفتاح، أريد أن أحتفظ به عندي. سأذهب إلى المخزن حتّى أتدرّب على الحزام ما إن يتسنّى لي ذلك. ينبغي أن أكون في أتمّ الاستعداد عندما يحين موعد الذّهاب.

ناول آماد المفتاح لشقيقه على مضض. نهض عزيز ليجرّب الحزام وخطى بعض الخُطوات المتعثّرة.

عليكَ أن تدسّه تحت قميصك.

أعرفُ ذلك، لست مجنونا.

إذن، افعل ذلك!

أنا من أقرّر متى أفعل ذلك.

حسنا، لا تغضب.

لن أغضب.

لماذا تصرخ إذن، يا عزيز؟

ابتعد عزيز متلوّيا كأفعى بين الأشجار. كان يتوقّف لاسترجاع أنفاسه من حين إلى آخر، متخفّيا وراء الجذوع، مترصّدا للأعداء، راكضا صوب خلف

Scanned with CamScanner

شجرة أخرى. أنهى لعبته بتسلّق صخرة كبيرة بشقّ الأنفس. قديما، قام جدّهما منير بعدة محاولات لنقلها من مكانها، لكنّه انتهى بأن يقبل تواجدها وسط أشجاره المثمرة. «في نهاية المطاف، قال مفكّرا، قد تكون هذه الصّخرة قادمة من السّماء». كان زاهد أيضا قد تعهّد بأن يفتّتها تحت ضربات مطرقة ثقيلة، لكنّه انتهى بأن يتراجع هو الآخر.

في صرخة مدويّة دفعت آماد إلى القفز من مكانه، كان عزيز قد فجّر نفسه على أمل أن يتخلّص حقل البرتقال من الصّخرة الوحيدة والعنيدة إلى الأبد. ظلّ يتخيّل بذراعيه المنطلقتين في الهواء بأنّ وابلا من الحصوات الصّغيرة راحت تنهال فوق رأسه، متناسيا للحظة لو ذهب بعيدا في منطقه بأنّ جسده سيكون جُزْءًا من الحطام المتساقطة من السماء المرتجّة.

لقد نجحتُ!

ماذا!

ألا ترى؟ لقد قمت بتفجيرها.

ماذا فجّرت؟

الصّخرة!

لا أرى شيئا من كلّ ذلك.

لتتخيّله، أيّها الأحمق!

لا أرغب في التّخيّل اليوم.

ماذا أصابك، يا آماد؟

هل تفكّر أحيانا في خالتنا دليمة؟

Scanned with CamScanner

لماذا تحدّثني عنها فجأة؟

أنت لا تردّ أبدا على رسائلها.

لا أريد التكلّم عنها. وأنت تعرف السّبب.

هل هو بسبب زوجها؟

إنّه ينتمي إلى النّاس الّذين يرموننا بالقنابل من الجهة الأخرى للجبل.

قد يكون مختلفا عنهم.

لا. لقد قال أبي إنّ جميعهم كلاب. كنت قد سمعته كذلك وسمعت سولاياد أيضا.

علينا أن نعود إلى المحزن فورا، ألا تعتقد ذلك؟

سمعا صوت محرّك، في اللّحظة نفسها التي أغلق فيها الأَخَوَان باب المخزن الثّقيل وراءهما.

لقد عاد أبي، تمتم آماد.

لا، إنّه ليس صوت محرّك شاحنة جارنا.

بعد برهة، تردّد صوت بوابة تُغلق. ثمّ استمعا لصوت اقتراب أحدهم.

تعال عزيز، لنختبئ هناك بالأسفل.

بالكاد كفاهم الوقت للتسلّل تحت الغطاء البلاستيكيّ بالقرب من المعدّات، قبل أن ينفتح الباب وسط صرير بطيء. دخل رجل، وخطا بضع خطوات ثمّ توقّف. كتم الولدان أنفاسهما.

أعرف أنّكما هنا. رأيتكما منذ الطّريق. لماذا تختبئان؟ آه، أحسّ بأنّني أحترق.

انحنى الرّجل على الغطاء الذي كوّن حدبة مضحكة.

توجد فعلا جرذان عملاقة هنا. من حسن الحظّ أن تكون هناك مسحاة رائعة أمامي مباشرة وهي تحسّ بالضّجر. لا يبقى سوى أن أتناولها لأصرع بها هذين الجرذين الدّميمين اللّذين يعتقدان بأنّهما غير مرئيّيْن. قال سولاياد مازحا. هيّا، أخرجا من هناك، يجب أن أتحدّث إليكما. اذهبا وابحثا عن والدكما.

إنّه ليس هنا، قال عزيز وهو يزيح الغطاء عن رأسه.

ذهب إلى القرية صحبة أمّنا، أضاف آماد فورا.

خرج الولدان من مخبئهما، استطاع سولاياد تبيّن بريق أعينهما المعبّر عن اضطرابهما رغم الضّوء القليل.

إذن أنت الّذي اختاره أبوك!

عمد عزيز إلى تخبئة الحزام النّاسف بواسطة ذراعه بعصبيّة. فهو لم يجد الوقت لانتزاعه وهو في خضمّ اضطرابه.

الحزام الّذي تحمله ليس لعبة.

أعرف.

هل أنت آماد أو عزيز؟

أنا... أنا آماد. قال عزيز مُغالطا

آماد. حسنا آماد، ليُباركك الله.

أخرج سولاياد من جيب سترته حزمة من الأوراق النّقديّة كانت مشدودة بخيط دقيق بعناية.

خذ، سوف تعطي هذا إلى والدك. إنّه هديّة، كنوع من التّعويض لما

Scanned with CamScanner

حدث لجدّيكما. سيحتاجه أبوك حتما. وستسعد والدتكما بذلك أيضا. أتعرف آماد، إنّ ما سيحدث أمر محزن وسعيد [في ذات الوقت]، هل تفهم ذلك؟ هيه؟ أمّا أنت فلن تكون سوى سعيدا. سوف تموت شهيدا. سيباركك الله ثلاث مرّات.

تناول عزيز المال دون أن ينبس بكلمة. لم ير شيئا بهذه الوفرة من قبل.

استعدّ آماد. سأعود خلال يومين.

غادرهما سولاياد وسط صمت ثقيل. فتح باب المخزن بضربة قويّة واختفى وسط هالة ضوئيّة مرفوقة بغبار مضطرب. انتظر آماد وعزيز ابتعاد صوت سيّارة "الجيب" ما يكفي كي يخرجا من سباتهما. تخلّص عزيز من الحزام وأعاده إلى مخبئه.

هاك، خذ المال آماد. أنت من ينبغي أن يوصله لوالدنا.

أنت على حقّ. لنخرج من هنا حالا.

أقفل عزيز باب المخزن بالقفل وأعاد المفتاح إلى شقيقه.

ألمْ تكن تريد الاحتفاظ به؟

ألم تسمع سولاياد؟ سأرحل بعد يومين. لن أجد الفرصة للعودة ثانية إلى المخزن.

نظر عزيز إلى شقيقه بتلك الحدّة الّتي جعلت هذا الأخير يدير رأسه وليشرع في الرّكض بلا سبب واضح، ثمّ ليختفي نهائيّا وسط حقول البرتقال.

Scanned with CamScanner

خيّم على المنزل حزن نديّ. ثَقُل الهواء رغم النّسيم العليل المتسرّب من النّوافذ المفتوحة. كان المنزل يُنتج الصّمت مثلما تُنتج أشجارُ البرتقال الضّوء. لكأنّنا بالجدران والأرضيّة والأثاث كلّها على علم بأنّ سولاياد سيعود بعد غد.

على مدى اليوم، همس عزيز إلى شقيقه بأنّه سعيد وأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

لا داعي للقلق، سنقوم بالتّبادل وما من أحد سيكتشف سرّنا.

كان آماد يرغب بضمّ أخيه بين ذراعيه وأن يجعله يختفي نهائيّا في تلك المعانقة حتّى لا يقدر أحد على اختطافه منه. سوف يموت مثل حليم. لن يلتقي به مجدّد على سطح الأرض. أمّا عزيز فكان قد وعده بأنّه سينتظره عند باب الجنّة. سوف ينتظره حتّى وإن صار آماد شيخا مثل قريبهما «بودير» الّذي مات في السّابعة والتّسعين. سيكونان معا مجدّدا.

عند المساء جمع زاهد كلّ العائلة في غرفة المنزل الكُبرى. كان قد دعا عددا من الجيران والعاملَيْن اللّذين كانا يساعدانه في حقل البرتقال. راح يحدّثهم بفخر منفعل بأنّ ابنه الصّغير آماد سيصبح عمّا قريب شهيدا. تقبّل جميع المدعوّين هذه الدّعوة على أنّها شرف كبير لهم.

كانت تمارا قد أعدّت طعاما يليق باحتفال كبير. كانت قد علّقت بالسّقف شريطا من المصابيح الملوّنة الّتي خضّبت الغرفة بأضواء متداخلة.

Scanned with CamScanner

وقد ندمت في حاليًا على فعلته. شعرت بأنّ هذا الضوء السّعيد هو ضرب من التّدنيس، مجرّد كذبة ساذجة. قدّمت تمارا الطعام لآماد الجالس بالقرب من والده أوّلا. كان هذا الأخير يشعر بالعار. لم يكن ليجرؤ على مجرّد النّظر إلى أخيه، هذا الّذي هو الأجدر بكلّ هذا الشّرف. قبل البدء في تناول الطعام، توجّه زاهد بالشّكر لله لأنّه وهبه ولدا بكلّ هذه الشّجاعة. لم يتمكّن من إخفاء دموعه. انتصب آماد واقفا وكأنّه يهمّ بأخذ الكلمة ليعترف بكلّ شيء. توقّعت تمارا ذلك. توجّهت نحوه وضمّته إليها. همست في أذنه بألاّ يقول شيئا: «افعل ذلك من أجل أخيك. أتوسّل إليك». تأمّل آماد أخاه. لقد أصبح بالفعل شخصا مغايرا.

بعد انتهاء الطعام، جمع الصّحون، تعاقب المدعوّون على آماد واحدا تلو الآخر، لتوديعه، لِلمسه، وتقبيله وهم باكون. رحلوا بعد ذلك في صمت، مطأطئي الرّؤوس وكأنّ لا شيء آخر تبقّى ويمكن قوله أو فعله. أطفأت تمارا شريط الأضواء الصغيرة، واستعاد ضوء أصفر وخافت منبعث من الشموع مكانته في إضاءة الغرفة الكبيرة، الّتي بدت وكأنّ الهواء قد خلت من الهواء فجأة.

لجأ الشقيقان إلى غرفتيْهما أبكر من العادة. ظلّ عزيز أمام النافذة يتأمّل النّجوم في عليائها طويلا.

***

كنّا على مشارف الظّهر عندما شقّ صوت سيّارة "الجيب" النّهار لتشطره شطرين. لم يذهب زاهد إلى العمل في حقل البرتقال وقد منح إجازة لعامليْه. ظلّ رفقة تمارا وولديْه محدّقا بالأفق، ولا يقدر على فعل شيء آخر. كان أربعتهم جالسين على عتبة المنزل في تمام السّكون. وما إن توقّفت سيّارة "الجيب" وسط

Scanned with CamScanner

سحابة من الغبار حتّى انتصبوا واقفين في نفس الوقت دون أن يقترفوا ولو خطوة واحدة في اتّجاه سولاياد الّذي كان بصدد النّزول من "الجيب". شرع هذا الأخير في الاقتراب منهم ببطء. لم يكن بمفرده. كان هناك رجلٌ يجرّ رجليه خلفه، لا هو شابّ ولا هو شيخ. كان محمّلا بحقيبة جلديّة مترهّلة مشدودة بشريط جلديّ إلى كتفه. لم يكشف سولاياد اسمه. اكتفى بإعلان أنّه «الخبير». كان بعينيْن مطفأتيْن وكانت تفوح منه رائحة عرق حادّة. طلب زاهد من تمارا وعزيز بأن يذهبا للانتظار في المنزل. امتثلا لأمره مرغميْن. دنا الخبير من آماد مبتسما.

بخير؟

بخير.

أنت لست سمينا كثيرا. كم يبلغ عمرك؟

تسع سنوات.

توجّه الرجلان وآماد ووالده إلى مخزن المعدّات. ناول آماد المفتاح لزاهد الّذي فتح القفل. ثمّ ثبّت الباب بعد ذلك بلوح خشبيّ حتى يبقيه مفتوحا على مصراعيه. تقيّأ النّهار نفقا من الضّوء الّذي رسم مستطيلا مذهّبا في عمق المخزن. طلب سولاياد من زاهد أن يعطي الحزام للخبير، الذي تفحّصه بسرعة. أطلع وهو في تمام الرّضى آماد على علبة صغيرة مغلّفة بالبلاستيك كان قد أخرجها من حقيبته. سأله الخبير إن كان يعرف ما هي.

لا. لا أعرف، ردّ آماد في خجل.

إنّه الـمُفجِّر. هل تفهم؟ سأل الخبير من أجل التأكّد ناظرا مباشرة في عينيْ آماد

Scanned with CamScanner

أعتقد ذلك، نعم.

عندما يحين الوقت، سيكون عليك الضغط هنا.

موافق.

هل فهمت جيّدا؟

أجل.

ليُباركك اللهّ!

شدّ الخبير العلبة الصّغيرة بالحزام بواسطة خيط أصفر.

هنالك خيط ثان. انظر جيّدا، إنّه أحمر. هل تراه؟

أجل، إنّني أراه.

هذا سنشدّه لاحقا.

لا تنشغل كثيرا آماد، أنا من سيهتمّ بذلك، أضاف سولاياد الواقف وراءه. سأفعل ذلك قبيْل أن تصعد الجبل بلحظات.

وجّه سولاياد لزاهد بعض الكلمات الّتي لم يتمكّن آماد من تبيّنها. خرج سولاياد بعد ذلك من المخزن ليعود بعد دقيقة وبين يديه آلة تصوير فوتوغرافيّة. كان من الممكن أنّه قد نسيَها في سيّارة "الجيب".

اخلع قميصك (قال الخبير آمرا آماد الّذي انصاع وقد فاجأته الصّرامة المنبعثة من نبرة صوته.

ثمّ مدّه الخبير بالحزام.

خذ، ضعه.

Scanned with CamScanner

لماذا؟ تساءل آماد باضطراب.

هذا من أجل الصّورة، قال سولاياد مفسّرا. قف بجوار الجدار. استقم في وقفتك. استدر ناحية الضوء. هذا تماما. لا تخفض رأسك.

تملّكت آماد رعشة وقد كان مبهورا ومشوّشا.

ما الّذي أصابك؟ زعق سولاياد. انظر باتّجاهنا! فكّر بأعدائنا! فكّر بما فعلوه بجدّيك!

كان آماد غير قادر على التفكير في أيّ شيء. كان يرغب بالتقيّؤ.

لكن، ارفع رأسك وافتح عينيك! انظر إلى والدك. لا تجعله يشعر بالإهانة.

التقط سولاياد صورة أولى ثمّ ثانية.

فكّر في الجنّة.

حاول آماد الابتسام بكلّ قوّة كاتما لدموعه.

كُنْ سعيدا، كُنْ مباركا، لقد تمّ اختيارك من طرف الله نفسه.

التقط سولاياد صورة أخيرة.

ارتد قميصك. سيكون والداك فخورين بك عندما يرونك في الصّورة حاملا الحزام.

أخذ زاهد يد ولده.

تعال، حان الوقت لوداع أمّك وشقيقك.

غادرا المخزن. كانت تمارا تنتظرهما على عتبة المنزل صحبة عزيز. كان

Scanned with CamScanner

هذا الأخير قد أحاط يده بمنديل مبقّع بالدّم. سارع بأن يفسّر لأبيه بأنّه جرح نفسه أثناء قصّ حبّات من البرتقال.

هيّا ودّع أخاك (قال زاهد).

ليس الآن.

عاد عزيز إلى المنزل راكضا وعاد حاملا لطبق صغير تتوسّطه كأس كبيرة.

انظر ماذا أعدّ لك شقيقك، قالت تمارا بصوت مرتاب.

خذ، اشرب. وهكذا، سترحل وفي فيك مذاق أفضل ما أنتجته أرضنا على الاطلاق، أضاف عزيز.

اقترب عزيز من شقيقه، وتعمّد إسقاط الكأس عليه. كان هذا الحادث الصّغير قد خطّط له التّوأمان منذ أيّام خلت. وبما أنّ آماد متعوّد على اطلاع أمّه على كلّ شيء دون أن يعلم أخوه بذلك، فإنّ تمارا كانت تعرف ما سيحدث. وكما هو مرسوم من قبل، فقد عمدت إلى صفع عزيز بسبب تهوّره. انفجر الخبير ضاحكا. وقد أخرس [نفس المشهد] سولاياد. فقد عمد إلى رفع قميص آماد المتّسخ بحذر شديد ليتأكّد إن كان عصير البرتقال قد تسرّب الحزام أو لا. فأكّد له الخبير أنّ الأمور على أحسن ما يرام:

سواء إن كان ماء أو عصيرا أو دما، فلا أهمية لذلك البتّة. ينقص دائما "الرّبط" مع المفجّر.

أعرف ذلك، قال سولاياد منزعجا، لا حاجة لأن تذكّرني بذلك.

اذهب وغيّر ملابسك، قالت تمارا لآماد.

سأذهب معه، أضاف عزيز من فوره.

Scanned with CamScanner

صعد الأخوان بأقصى سرعة إلى غرفتهما. نزعا ملابسهما. ساعد عزيز أخاه في التخلّص من الحزام.

ما قصّة هذا "الرّبط"؟

إنّه بخصوص المفجّر. انظر عزيز، إنّها هذه العلبة الصّغيرة. لقد كان الخبير من ربطها بالحزام هنا بالضبط، أترى ذلك، بواسطة الخيط الأصفر.

والخيط الأحمر؟

قال سولاياد بينما نحن في المخزن إنّه من سيتكفّل بالأمر.

لكن متى؟

حالما تصلُ إلى الجبل.

هل هنالك أمر آخر عليّ أن أعرفه؟

لا.

آماد...

ماذا؟

لا تُعِد القميص الملطّخ!

وما إن انتهيا من تغيير ملابسهما، حتّى أعطى عزيز لشقيقه سكّينا صغيرا كان ينتمي إلى جدّيهما منير. وكان قد استعاده من ركام المنزل.

هيا اجرح يدك اليسرى، لا ترتكب أيّ خطأ.

أحدث آماد جرحا بأسفل إبهامه.

خُذْ آماد، هذا من أجلك.

Scanned with CamScanner

ما هذا؟

أنت ترى ذلك جيّدا، إنّها رسالة. سوف تقرؤها بعد موتي، موافق؟

أعدك بذلك.

لا. يجب أن تقسم على ذلك.

أسقط آماد قليلا من الدّم النازف من جرحه على الظرف.

أقسمُ على ذلك.

وسّع آماد باصبعه لطخة الدّم الّتي على الظرف. وكأنّه بالختم الّذي طبعه على رسالة شقيقه ما يجعل تبادلهما بضربة واحدة غير قابل للمراجعة. ناول عزيز آماد المنديل الملطّخ بدم الخروف. فأحاط به يده المصابة. بقلب خافق، عاود الأخوان النزول. وقد صار عزيز آماد وآماد صار عزيز.

Scanned with CamScanner

عزيز

عزيز، ما الّذي يشْغلك؟

كان على ميكائيل أن يكرّر طرح نفس السّؤال للمرّة الثّالثة حتى يرفع طالبُه رأسه نحوه وليرتجل ابتسامة مضطربة.

لا شيء سيّدي.

لستُ متأكّدا تماما.

كان ميكائيل قد اختار عزيزا ليؤدّي دور "سوني"، طفل بعمر السّابعة تقريبا. لم يكن اختياره صعبا. فقد احتفظ عزيز من طفولته بعينيْن مذهولتين في نظرتهما إلى كلّ ما يتربّص بهما. كما امتلك صوته عذوبة غير متوقّعة بالنّسبة لشابّ في العشرين من عمره. عادة ما يكون على ميكائيل أن يؤكّد عليه بأن يعلن صوته [للآخرين] عوض أن يحتفظ به لنفسه. وكان حضوره الهشّ والهائم، الشّبيه بحيوان متأهّب ما يتلاءم تماما مع الدّور الموكول إليه.

كان ميكائيل قد كتب هذا النّص المسرحيّ خصّيصا لعرض تخرّج طلبته، وهو نفسه الّذي سوف يتوّج أعوامهم الأربعة التي قضّوها في التّكوين بعرض

Scanned with CamScanner

مسرحيّ تطبيقيّ. خلال الشّهور، سيُصبحُ كلّ هؤلاء ممثّلين شبّانا ومحترفين وسينطلقون في رحلة بحث عن عروض تجريبيّة أولى ليفتتحوا بها مسيرتهم المهنيّة. على مرّ هذه السّنين، كان ميكائيل يتعرّف على عدد منهم في ومضات إشهاريّة للبيرّة أو للشّامبو. قد يتمكّن عدد قليل منهم من تدبّر أدوار صغيرة في بعض المسلسلات التّلفزيونيّة. وسيَكون على أغلبهم أن يحصلوا على مهن أخرى على غرار نادل في مطعم. أمّا أوفرهم حظّا وأكثرهم براعة فإنّه ذاك الّذي يتمّ اكتشافه يوما ما من طرف المخرجين المشهورين الأكثر مشاهدة والّذين لن يتردّدوا في منحهم أدوارا مهمّة، عاشق مبتدئ أو جميلة ساذجة.

خلال مسرحيّة ميكائيل، يجد "سوني" نفسه بين يدي جنديّ من جنود الأعداء. كان الطّفل شاهدا عاجزا على حادثة مقتل أبويْه الوحشيّ. كان الجنديّ قد بتر يديْ والده ليرديه بعد ذلك برصاصة. ثمّ اغتصب والدته ورمى بها جثّة هامدة فوق جسم زوجها المنكّل به. كان الجنديّ وبعد أن أصابه بعض الاشمئزاز من بشاعة جرائمه تلك قد تردّد لوهلة في التخلّص من "سوني" الّذي كان يذكّره بابنه. تنتهي المسرحيّة عندما يطلب الجنديّ من الطّفل أن يبحث له عن سبب جيّد حتّى لا يجعله يلقى نفس مصير والديه. ظلّ سوني أخرس. تتلاحق بعد ذلك مشاهدُ أخرى حيث يتمّ تقديم المعسكريْن المعاديْين على نحو تبادليّ ما أتاح للمسرحيّة أن تعرّيَ عبثيّة الحرب.

كان ميكائيل قد قسّم الفصل الدّراسيّ إلى ثلاث مجموعات مختلفة: الأب والأمّ والطفل من جهة، الجنديّ العدوّ من جهة ثانية، وجوقة الجنود الأعداء من جهة ثالثة. كان العمل يتقدّم بشكل حثيث. كما كان الطلاّبُ

Scanned with CamScanner

دقيقين وفي تمام تركيزهم. لم يكن الأمر يتعلّق بأداء كلّ التّسلسل العاطفيّ المطلوب، فالمجال ما زال غير سانح في ذاك المستوى من العمل. ينبغي قبل ذلك التدرّب على موقعة الجسد داخل الفضاء، على إحكام توجيه النّظرة، التحكّم في الحركة وعرض الجُمل المسرحيّة وفق إيقاع محدّد ودون تسرّع. كان ميكائيل يخشى أن تعترضهم بعض الصّعوبات خصوصا في مشهد الاغتصاب، لكنّه تمّ أداؤه دون حساسيّة مُفرطة. ومع ذلك، تملّكت كلّ المجموعة غيرةٌ شبه دينيّة عندما كان الجنديّ العدوّ يتّجه صوب الطّفل بعد أن قضى على أبويْه. ينبغي أن نكون بعيون عمياء حتّى لا نفهم أنّ مصدر تلك العاطفة كان عزيزا وليس "سوني".

عزيز، ما الّذي يشغلك؟

لا شيء، سيّدي.

لستُ متأكّدا تماما.

لن أتمكّن من أداء هذا الدّور.

لماذا؟

غادر عزيز قاعة الدّرس، دون أن ينطق بكلمة أخرى.

Scanned with CamScanner

في الغد، لم يحضر عزيز إلى قسم التّدريبات. انزعج ميكائيل بشدّة. وبعد انقضاء يومين، هاتفه ليقترح عليه موعدا في مقهى بالقرب من المدرسة. كان هو من وصل أوّلا، جلس في انتظار وصول طالبه بفارغ الصّبر. كان عزيز قد بدا له متردّدا خلال المكالمة، من الواضح أنّ سببا قويّا يقف وراء ارتباكه. مرّ على أوان الموعد ما يفوق نصف السّاعة حين لاح طيف الشّاب من النّافذة الكبيرة للمقهى. كان عزيز بوجهه شبه المخفيّ خلف وشاح أحمر كبير وقبّعة تغمر رأسه، يتردّد في الدّخول إلى المقهى، خرج ميكائيل وأومأ إليه.

لماذا لا تدخل؟

لا أدري.

هل تريد التّمشّي قليلا؟

حسنا.

تمشّيا في صمت لوقت كاف. لم يكن ميكائيل مرتاحا وتوقّع أن يكون عزيز أكثر من ذلك بكثير. كان الثّلج يتساقط خفيفا، وهي أولى تساقطات الثّلوج لهذا الشتاء. غرق ميكائيل في تأمّل نُدف الثلج وهي تدور من حوله. كان الحيّ اللاّتينيّ يبدو في تمام الهدوء، فما زال أغلب الناس منشغلين بكسب قوتهم في المكاتب، في المحالّ التجاريّة وفي المطاعم. وميكائيل ممّن يحبّون تلك اللحظات الفارغة أين تنعم المدينة باستراحة

Scanned with CamScanner

قصيرة قبل أن تجتاحها جحافل النّاس المتلهّفين على الوصول إلى منازلهم.

لماذا ينبغي على الطّفل أن يموت؟

تفاجأ ميكائيل من سؤال عزيز المباغت، والّذي كان منذ ثوان قليلة فقط لا يعرف حتّى ماذا عليه أن يقول.

الطّفل؟

أجل، الطّفل بطل مسرحيّتك.

لأنّها... لأنّها الحرب، عزيز.

هل تريد إبراز قساوة الحرب؟

نعم، أعتقد أنّ ذلك من ضمن أهداف مسرحيّتي.

اعذرني، سيّدي. لا أريد أن أكون فظّا، لكنّي لست موافقا.

موافقا على ماذا؟

هذا ليس كافيا.

ماذا؟ عزيز، قل كلّ ما لديْك.

إبراز هذا، كلّ هذه الأمور الوحشيّة.

أنت لا تريد للطّفل أن يموت في المسرحيّة، هذا ما تريد؟ لكن ماذا تريده أن يفعل لمجابهة ذلك المرتزق؟

هذا ليس عدلا.

أدركُ ذلك، لكنّها حقيقة الحرب. إنّها هكذا.

Scanned with CamScanner

أنت لا تعرف عمّ تتحدّث!

كانت نبرة عزيز الحادّة، وهو المتحفّظ عادة، قد أعادتهما إلى مربّع الصّمت من جديد. حثّ الطّالب خطاه بينما وجد ميكائيل صعوبة في مسايرة إيقاع مشيته المتوتّر، توقّفا في زاوية من الطريق لينتظرا انتقال الضّوء إلى الأخضر. تمكنّ ميكائيل من استعادة أنفاسه، ورغم تهاطل الثّلوج اقترح على عزيز الذّهاب للجلوس في حديقة صغيرة تقع في الجهة المقابلة من الشّارع. لم يقل عزيز شيئا، فافترض ميكائيل أنّه موافق. خلّص مقعدا من ثلوجه الّتي تراكمت حديثا وجلسا جنبا إلى جنب، بأيدهما المكتوفة والمضمومة إلى بطنيْهما. راحت أنفاسهما تتحوّل إلى غيوم صغيرة من البخار الأبيض، الّتي سرعان ما تتلاشى في الهواء.

لم يجرؤ ميكائيل على استئناف المناقشة. فقد شعر بأنه مستهدف. لماذا لا يكون من حقّه الحديث عن الحرب بوصفه فنّانا؟

وهو يستدير نحوه بغية أن يسأله إن كان يشعر بالبرد، لمح ميكائيل دمعة تسيل ببطء على خدّ عزيز ثمّ تتوقّف متجمّدة.

أعط دوري لشخص آخر.

لكن لماذا، عزيز؟ فسّر لي السّبب.

هذا ليس عادلا، كنتُ قلت لك ذلك من قبل.

بطبيعة الحال هو ليس عادلا. سيشعر الجمهور بذلك مثلك تماما، وهذا ما أبحث عنه. أرى جيّدا أنّك مشوّش. قل لي عزيز، ماذا حدث خلال التّدريبات الأخيرة؟

اسمي ليس عزيزا في الحقيقة.

Scanned with CamScanner

ماذا تريد أن تقول؟

آماد. هكذا كنت أُدعى من ذي قبل....

قبل ماذا؟

Scanned with CamScanner

راح ضوء النّهار يتضاءل لتنبعث بعض الأضواء الخجولة من مصابيح النّيون. منذ مغادرتهما الحديقة الصّغيرة، وعزيز يسرد على ميكائيل حكاية طفولته دفعة واحدة، كانت كلماته موقّعة بتواتر خطواته الواسعة. ظلاّ يتمشّيان في المدينة طويلا وهما لا يعلمان أين ستقودهما أرجلهما. ما زال الثّلج يتساقط ليكتنف سرد عزيز بما يشبه الغلاف العازل الّذي راح يمضي به بعيدا في المكان والزّمان، وليعطيَه صبغة حُلم هشّ على وشك التّلاشي.

ماذا حدث بعد عمليّة تبادلكما للأدوار؟

كنت قد أقسمتُ لأخي أن أنتظر موته لأقرأ رسالته. وهو تماما ما فعلته، انتظرتُ. وهو أيضا ما فعلناه جميعا أنا ووالداي، انتظرنا موت أخي والقلق يكمّم أفواهنا، كنّا وكأنّنا ننتظر هطول المطر أو هو الصّباح ما ننتظر. بعد مضيّ يوميْن، كان علينا أن نرحّب بعودة سولاياد وكأنّنا نرحّب بحدث سعيد. نزل من "الجيب" وهو يحمل رزمة كبيرة ملفوفة بأوراق الجرائد. كنّا نعرف حقيقة محتواها. جلسنا جميعا في الغرفة الكبرى للمنزل. أعدّت أمّي الشّاي، لكن لا أحد تمكّن من لمسها عدا سولاياد. ظللْنا ننتظر إلى حين يتكلّم، كنّا ننتظر بقلب منقبض، ننتظر أن يحدّثنا بكلّ ما جرى في الضفّة الأخرى من الجبل.

«لقد وهب منزلكم شعبَنا شهيدا، افتتح سولاياد حديثه بصوت احتفاليّ. ليُبارك اللهّ هذا المنزل! إنّ آماد في نعيم الجنّة الآن. وهو لم يعش

Scanned with CamScanner

سعادة مشابهة من قبل. صارت سعادته أبديّة. ابتهجوا! أجل، أدرك حجم حزنكم لأنّكم خسرتم ابنا لكن عليكم أن تبتهجوا، أن ترفعوا رؤسكم عاليا، أن تفخروا. وأنت، قال سولاياد ملتفتا ناحيتي، لا تبكِ شقيقك مجدّدا، لا تبكه إطلاقا، فشقيقُك برفقتك الآن، ألا تشعر بذلك؟ بل يكن أكثر قُربا منك أكثر ممّا هو عليه الآن، آه لا، أبدا! لم يكن أكثر قُربا. كان ونحن أمام الجبل، قبيْل أن يغادرني، قد أخبرني ثانية بكلّ الحبّ الّذي يكنّه لك ولأبويْك. كونوا سعداء ومباركين».

صمت سولاياد لبرهة، فرغ من شرب شايه. لم نكن لنجرؤ على استجوابه. اقترحت عليه عليه أمّي مزيدا من الشّاي. تظاهر بأنّه لم يسمعها وواصل كلامه موشوشا:

«لن تسمعوا شيئا عن مهمّة آماد من طرف أولئك النّاس، أستطيع أن أؤكّد لكم ذلك. إنّهم يشعرون بعار هزيتهم النّكراء. لقد نجح آماد في أداء مهمّة مثاليّة. نعم، أقول لكم ذلك بصريح العبارة، لقد حقّق الهدف الذي عُهِدَ إليه بنجاعة نادرة. كان الله من وجّهه. وجّه خطواته في عمق الجبل، أنار الله طريقه ليلا كي يتمكّن من التّوغّل إلى حدود المعسكر المدجّج. وفجّر كلّ شيء». وهنا انشقّ وجه سولاياد بابتسامة عريضة. لمعت أسنانه ببياض ناصع وسط اللّطخة الدّاكنة الّتي هي لحيتُه. امتلأ جسده فجأة بحيويّة متجدّدة. بدا أضخم وأقوى عندما نهض للتخلّص من مغلّف الحزمة التي أتى محمّلا بها. عرض على أبي هديّته: صورة مؤطّرة لابنه الميّت، ابنه الشهيد، تلك الّتي كان قد التقطها له في المخزن. كان يحملها مزهوّا وكأنّه يحمل شارة نصر. ألقت أمّي عليّ نظرة مليئة بالتّوسّل. عندما تعرّفت على نفسي في الصّورة غادرتُ الغرفة فارّا. سمعتُ بعد لحظات صوت انطلاق "الجيب". راقبتُ ابتعاده وأنا منحن من نافذة غرفتي متمنّيا ألاّ أسمع مجدّدا هذا الصّوت الّذي راح يسبحُ في سماء حقل البرتقال.

فتح عزيز معطفه وغاص بيده في العمق ليسحب منه ظرفا مطويّا.

Scanned with CamScanner

إنّها رسالةُ أخي.

كان الظّرف مصفرّا ومنكمشا. في فتحه، تمكّن ميكائيل من تبيّن البقعة البنيّة المطبوعة بدم آماد قبل أن يصير هذا الشّابّ «عزيزا» الذي يقف بجانبه. اكتنفه شعور غريب راح يعكّره. لقد كان يحسّ وكأنّه قد ساهم في قصّة هذين الشّقيقين، بمجرّد مسكه لهذا الظرف ولمسه بيديه. كما لو أنّ قطعة من ماضيهم قد تمكّنت من النّجاة لتتجسّد في كوكب آخر. فتحه. وجد رسالة قصيرة مكتوبة دون شكّ باللّغة العربيّة.

هل يمكن أن تترجمها لي؟

قرأ عزيز عليه الرّسالة مترجما إيّاها تدريجيّا. بعد برهة، تفطّن ميكائيل إلى أنّ عزيزا لم يعد يقرؤها. وإنّما كان يتلو سطورها عن ظهر قلب، خمّن ميكائيل بأنّ عزيزا قد ردّد هذه الرّسالة آلاف المرّات مثلما تُردّد الصّلاة.

آماد،

عندما كنتُ نزيل مستشفى المدينة الكبيرة، تعرّفتُ على طفلة في مثل عمرنا. كانت تنام على السّرير الّذي بجوار سريري. لقد أحببتها كثيرا، وكانت تُدعى "ناليفة". بينما كنتُ أنا نائما، كانت قد استمعتْ هي لمحاورة. لقد أخبر الطّبيب أبي بأنّني لن أتماثل للشّفاء أبدا. هنالك شيء يتعفّنُ داخلي. لا أحد على وجه الأرض بمقدوره إيقاف هذه الشّيء الّذي راح يعفّن جسدي. أخبرتني "ناليفة" بكلّ شيء قبل أن تُغادر المستشفى. لقد كانت في غاية الشّجاعة. كانت بدورها تعرف ماذا سيحلّ بها. لأنّها كانت مريضة جدّا أيضا. قالت لي إنّه يجب عليّ أن أعلم بالأمر. أردت أن تكون عارفا بهذا الأمر أنتَ أيضا، لكن ليس قبل رحيلي نحو الجبل.

Scanned with CamScanner

لأنك لو كنت عارفا به لما تركتني أرحل. أنا أعرفك جيّدا، لن تقبل باتمام عمليّة التبادل. لكن بفضلك سأشهد موتا مجيدا. لن أتألم، وعندما ستقرأ هذه الرّسالة سأكون أنا في الجنّة. أ ترى؟ أنا لستُ شجاعا جدّا كما تعتقد.

عزيز

اهتزّ كيان ميكائيل. فقد كان الطّفل الّذي كتب رسالة الوداع هذه في التّاسعة من العمر، [لا أكثر]. وهذا الّذي تَوجَّهت له هذه الكلمات يبلغ العمر نفسه. راح ميكائيل يستوعب إلى أيّ درجة يمكن للحرب أن تمحو الحدود التي تفصل بين عالم الكبار وعالم الصّغار. أعاد الرّسالة إلى عزيز وهو عاجز عن النّبس بكلمة واحدة.

استأنف الرّجلان تجوالهما وسط المدينة. كان الحيّ الصّينيّ الّذي يعبرانها الآن قد تغيّرت ملامحه تحت تساقط الثّلوج. بينما كانت المحلاّت التّجاريّة تلقي عليهما بريقها الأحمر.

لم يكن أخي يعرفني كفاية. كان مخطئا في شأني. حتّى وإن لم تطلب منّي أمّي ذلك، كنت سأقوم بعمليّة التّبادل، لقد كنتُ جبانا.

حثّ عزيز خطواته وكأنّه يريد الهروب من شيء ما. كان ميكائيل بعد تحت هول المفاجأة، ولم يكن يعرف كيف يردّ على هذا الاعتراف. ظلّ لِلَحظات يرقب عزيزا بينما هو كان يختفي وسط الثلوج المتساقطة بكلّ ثقلها. خُيّل إليه أنّه رأى هذا المشهد من قبل: رؤية شخص ما وهو يبتعد مع لُغزه.

عزيز، انتظرني! لا داعي لأن تُلقيَ كلّ اللّوم على نفسك. كلّ ما رويتَه لي عن طفولتك... كلّ ما أُجبرت على تحمّله... هذه الحرب الّتي ما تزال تلقي

Scanned with CamScanner

بأهوالها هناك بعد كلّ هذه السّنين... أمّك الّتي لم تكن تريد فقدان ولديها معا...

أنت لا تفهم. لقد كنت أخاف ذاك الحزام، كنت أخاف ذاك المسمّى سولاياد. لقد كذبتُ إذن، لعبت دور الشّجاع. لم أكن أريد أن أموت! هل تفهم ذلك، يا سيّدي؟

Scanned with CamScanner

ظلّ آماد يمشي لوقت طويل. مع أنّ خطوتيْه لم تقوداه في النّهاية إلى أبعد من الصّخرة الوحيدة الّتي تتوسّط حقل البرتقال. بوثبة واحدة وجد نفسه فوق الصّخرة وهو أخفُّ من عصفور. كانت تحيطه من كلّ جانب أغصانٌ مُثقلة تبرق وتتأرجح في الرّيح. أغمض آماد عينيه وقطف برتقالتين عشوائيّا. وكمحموم وضعهما فوق الصّخرة، واحدة على يمينه وأخرى على يساره. بدأ بشطر تلك الّتي على يمينه شطريْن مستخدما سكّين جدّه منير. لم يجد ولو بذرة واحدة بنصفيْ البرتقالة. شطر البرتقالة الثّانية، ففاض دم ينزّ من داخل الثّمرة. راح يحصي ويُحصي ليجدها متركّبة من تسعة أسنان صغيرة. أمسكها ووضعها في تجويف راحة يده فبدأت تذوب مثل الشّمع، وراحت تحرق يدَه.

حينها فقط استفاق من حُلُمه.

عندما لا يكون نائما بسريره الّذي أصبح أكبر بكثير، كان آماد يقضي كلّ وقته في التأمّل من خلال نافذة غرفته. كان يقول في نفسه إنّه تحت طائلة تأمّل الأفق، سيتمكّن أخيرا من استحضار شقيقه وإعادته من الجهة الأخرى من الجبل حتّى وإن كان في ألف قطعة. كانت أمّه تطرق الباب وتناديه، لكنّه لا يجيبها. فكانت تدخل، ترمقه بكلّ ما في العالم من حزن.

كانت تتوسّل إليه:

كُلْ شيئا.

لستُ جائعا.

Scanned with CamScanner

سينتهي بك المطاف مريضا. افعل ذلك لأجله، لأجل شقيقك. هل تعتقد أنّه سيكون سعيدا برؤيتك متململا هكذا فوق السّرير؟ إذن؟ ألا تجيب أمّك؟ حَدِّثني آماد. بماذا تعتقد أنّني أحسّ حاليّا؟ إذا ما كان هنالك من يجب أن يُلام، فهي أنا. إذا ما كان هناك من يجب أن يتعذّب، فهي أنا. هل فهمتني آماد؟ اترُكْ لي كلّ المعاناة سأتولّى أمرها. وأنت، ما عليك إلا أن تعتني بشؤون الحياة. أرجوك، كُلْ شيئا ما وانسَ، انسَ...

كان آماد يحبس نفسه داخل الصّمت، فتغلق تمارا باب الغرفة بقلب منكسر.

كان الجرح الّذي سبّبه في يده بواسطة سكّين جدّه لا يلتئم رغم بساطته. فآماد لم يتوقّف من يومها على إعادة فتحه بأظافره في كلّ مرّة ليسيل دمه من جديد. راحت أصوات أكثر ممّا كانت عليه تلاحقه وهي مثقلة بعبارات التّوبيخ. كانت تتردّد في رأسه مثل ضربات مجرفة على صخرة. كانت تسخر منه وتقهقه [داخل رأسه] دون سبب واضح. لم يكن بمقدوره النّوم إلا إذا ضمّ إليه وسادة شقيقه. في إحدى اللّيالي، اكتنفه يقين بأنّه كان يحضن بين ذراعيه جسد عزيز الّذي عُثر عليه أخيرا. كان شعورا بتلك القوّة الّتي دفعته إلى البكاء فرحا.

«لم يرحل عزيز بالحزام ليفجّر نفسه في معسكر العدوّ. أبدا، كنتُ من اختلقَ تلك القصّة أو أنا الّذي تخيّلتها أو ربّما كنت قد حلمتُ بها». هذا ما كان آماد يردده في نفسه كما يردّد صلاة قبل نومه.

احتضن الوسادة بكلّ ما أوتيَ من قوّة إلى حدّ أنّه راح يتخيّل أنّ الدّم يفيض منها أثناء نومه. بكلّ اشمئزاز، استفاق مذعورا، ليرمي الوسادة أرضا. وبينما كان يعدّل نفسه ليجلس على حافّة السّرير، تراءت له كتلة

Scanned with CamScanner

داكنة تجلس القرفصاء أسفل النّافذة.

من هنا؟

سمع آماد تنفّس أحدهم.

ألم تعرفْني؟

جدّي منير!

لا تقترب منّي. لا أريدك أن تراني.

لماذا؟

لست جميلا كي تراني. ابق في سريرك.

ألستَ أنتَ من رأيتُ ذلك اليوم في المخزن؟

كان ظلّي.

ألستَ في الجنّة؟

ليس بعد. ما زلت أبحث عن جدّتك.

أوليْستْ برفقتك؟

لا يا آماد. عندما هوت القنبلة لم تكُنْ في سريرنا. تناثرت أجسادنا أشلاء في اتجاهين متباعديْن.

وجدناها في المطبخ، قال آماد بخجل، كانت بصدد صُنع كعكة.

كعكة؟

نعم، أخبرتني أمّي بذلك.

هم الكلاب، يا آماد.

Scanned with CamScanner

الكلاب؟

الكلاب. الكلاب! كان عليها أن تنهض ملء اللّيل لأنّها كانت تخاف الكلاب. إنّهم أعداؤنا، أنت تعرف ذلك، هم هنا معنا على الجهة الأخرى من الجبل. لقد كانت تحسّ بالأمان في مطبخها.

أنتَ محقّ، ربّما.

أصغ إليّ يا آماد. لم يكن من حقّك أن تحلّ محلّ أخيك.

لم أكن أرغب في ذلك. لقد أجبرتني أمّي.

لقد عصيتَ أباك. لقد اقترفتَ خطأً جسيما.

لكن يا جدّي، عزيز كان مريضا و...

أعرف. أعرف كلّ شيء! لكنّك خالفت مشيئة الله.

لا!

لقد خالفتَه، آماد! لهذا السّبب أنا وجَدَّتُكَ مفترقان. هذا بسبب خطئك، أحسّ بآلام مبرحة. بسبب خطئك هذا، لم تعثر جدّتك على طريق الجنّة.

لا!

نحن هائمان في سواد مطلق. لن أعثر على جدّتك شاهينة طالما لم تنتقم لموتنا بالتّضحية بدمك. انتقم لنا أنت أيضا! فدم أخيك لا يكفي!

لا!

انتقم لنا، وإلاّ سنبقَى أنا وجدّتك تائهيْن في عالم الأموات إلى نهاية

Scanned with CamScanner

الأزمان.

لا، لا أريد! اتركني يا جدّي.

لم أرد أن أفرض عليك هذا الأمر، لكني حاليًا، لم يعد هناك خيار آخر. سأخرج من الظلّ حتّى تتمكّن من رؤيتي. أُنظر آماد إلى ما فعله هؤلاء الكلاب بي، انظر إلى ما تبقّى من جسمي ووجهي. لم أعد أملك ولا حتّى عينيْن. انظر إلى الفم الّذي يحدّثك، فما هو سوى جرح ينزّ دما، انظر!

رأى آماد فمًا كبيرا ومنتفخا من الدّم، وقد شرع في الاقتراب منه.

«سارق! سارق!

سوف أشي بك!

لقد سرقت حياة شقيقك!

لقد قطّعت جسده إلى أشلاء!

وقد خبّأته في وسادتك!»

في تلك الليلة، أيقظت صرخات آماد المرتعبة زاهدا وتمارا من نومهما. عندما دخلا إلى الغرفة، كان الطّفل واقفا على سريره وهو يصرخ من الفزع مشيرا بسبّابته إلى النّافذة. وكان قد عضّ يده المصابة ليخضّب وجهه بالدّماء. راح يردّد بلا توقّف أنّ فم دودي الكبير يريد إلتهامه.

فجرا، استعار زاهد شاحنة جاره. كان عليه أن يفعل شيئا ما. كان آماد يحترق من الحمّى وكان يهذي. ظلّ وزنه يتناقص منذ فقدان أخيه، إلى درجة أنّه صار هيكلا عظميّا. دثّرته تمارا وصعدت معه إلى الشّاحنة. كان تبدو هي الأخرى محمومة وقد عجزت عن حبس دموعها. قبل بضعة أشهر، كان زاهد قد استأجر سيّارة لاصطحاب ولده عزيز إلى المستشفى. وبعودته هذه المرّة الى

Scanned with CamScanner

المدينة الكبيرة في هذا الصباح، كان يعتقد أنّه يصطحب نفس الولد. لم يكن يشكّ البتّة بأنّه آماد من تحيطه أمّه بذراعيها هذه المرّة. مرّوا بعدّة قرى مدمّرة تحت طائلة التفجيرات الأخيرة. أوقف زاهد الشاحنة فجأة.

كان الطّبيب قد نبّهنا إلى الأمر. إنّها النّهاية تمارا.

لا، هذا مستحيل!

يجب أن نتركه يموت في سلام. لن يجدي نفعا أن نذهب به إلى هناك. سيكون الأمر أسوأ بالنّسبة إليه. وبالنّسبة إلينا نحن كذلك. اسمعي، لنعُد إلى المنزل.

أرجوك يا زاهد، يجب أن نأخذه إلى المستشفى.

لم تعد الطّرق آمنة. أنت تعرفين ذلك، لقد أصبحت أكثر خطورة منذ مدّة. ثمّ، ما الّذي سيتغيّر، هيه! بالنّسبة إليّ، عزيز هو فعلا...

أنتَ بلا قلب!

كانت تمارا على وشك أن تُطلع زوجها عن التّبادل الذي تمّ بين الأخوين. لكن زاهدا أعاد تشغيل الشّاحنة لينطلق في اتّجاه المدينة الكبيرة.

Scanned with CamScanner

في المستشفى، عندما تعرّف آماد على وجه أبيه المنكبّ على وجهه، فهم بأنّ شيئا غريبا قد حصل. أبدا لم ير على محيّا أبيه ابتسامة بكلّ هذه الرّقة. لم يعد زاهد نفس الرّجل.

أخبرته أمّه عمّا حدث له خلال الأيّام التي فيها كان يهذي. قام الطّبيب بجميع فحوصاته على أنّه عزيز. كان ينبغي أن نضع ذلك من ضمن الاحتمالات: لم يعد هناك أثر للسرطان. كان ذلك معجزة حقيقيّة بالنّسبة إلى الطبيب الّذي عالج شقيقه. لم يجد أيّ تفسير آخر لهذا الشفاء المدهش. وهي معجزة قد غمرت زاهدا بالفرح، لكنّها أصابت زوجته بالهلع.

عند العودة إلى المنزل، كان زاهد يـُخبر كلّ من أراد سماعَه بأنّ صلواته قد استُجيبت: لقد شفى اللهّ ابنه المريض. كان الأب يقترب من ولده، ويلمسه كما لو أنّه يريد التحقّق من كونه على قيد الحياة حقّا، كان يأخذه بين ذراعيه مردّدا أنّ الابن المضحّى به لم يمتْ بلا جدوى، فقد جازاه اللهّ بشفاء شقيقه.

كان آماد يشعر بالخزي، وكان مذعورا أيضا.

بعد مُضيّ مدّة قصيرة، حلّت بالمنطقة فترة من الهدنة. كانت التفجيرات قد توقّفت تقريبا. اقترب موسم الجني، فانتدب زاهد عشرة أشخاص ليساعدوه على العمل في حقل البرتقال. تراكمت سلال البرتقال وسط المستودع الصغير، سينتهي الجنيُ قريبا. لذا قرّر زاهد إقامة احتفال كبير على شرف آماد ابنه الشّهيد، وعزيز ابنه الثّاني الّذي نجّاه اللهّ من الموت. كان بهذه الكلمات قد دعا

Scanned with CamScanner

النّاس للاحتفال بانتهاء موسم الجني لهذه السّنة.

قدم عدد كبير من المدعوّين. كلّ الأجراء وأفراد العائلة والجيران. كان زاهد قد دعا كمالا أيضا والد حليم، وطبعا سولاياد. تكفّلت تمارا بتزيين المنزل، توافدت نساء من الجوار لمساعدتها على إعداد أطباق عديدة. وكان من حقّ آماد أن يحصل على ملابس جديدة بالمناسبة. وقد عُلِّقت بالغرفة الرّئيسيّة شرائطُ ضوئيّة أثقلتها الصورة الكبيرة للابن الشّهيد. وأضيئت عدّة فوانيس أمامها مباشرة. لم يتمكّن آماد من النّظر إليها. كان يخْفض رأسه كلّما مرّ أمامها. فما تلك الصّورة إلاّ كذبة كبرى. لم يستقبل المنزل هذا العدد الهائل من الناس قبل هذا اليوم. راح النّاس يتحدّثون كما لو أنّهم سعداء. إذ كانت هذه السّعادة الصّاخبة هي أيضا كذبة. قبل أن تقدّم تمارا الطعام، أصرّ زاهد على اصطحاب كلّ الحاضرين إلى موقع منزل والديْه المهدّم. حدّثهم عن تلك اللّيلة المشؤومة، حدّثهم بطاقة تعاظمت بكلّ الّذين كانوا يصغون إليه. وصف لهم صوت القنبلة الـمُصِمَّ للآذان، وصف الرّائحة الفظيعة التي تلتْهُ والأنقاض وعن أشلاء جسدي والديه المسكينيْن. كال الحاضرون الشتائم للأعداء، صارخين وملتفتين ناحية الجبل. في تلك اللحظة، حطّت يدان على كتفي آماد. عندما التفت، رعبته ابتسامة سولاياد النّاصعة.

كيف حالك؟

عجز آماد عن الإجابة.

هل فقدتَ لسانكَ؟

انعقدت الكلمات في حلق آماد.

Scanned with CamScanner

هل أنت آماد أو عزيز؟ هذا غريب، لن أتمكّن أبدا من تذكّر ذلك. من الّذي رافقني، من يكون؟ هيه؟

كان آماد يدرك أنّ سولاياد يكذب أو يتظاهر بالنّسيان. كلّ الناس على علم في الوقت الحالي باسم الّذي مات شهيدا. لقد نطق كلّ الحاضرين اسمه عشرات المرّات منذ انطلاق الاحتفال. وهذا الاسم كان اسمه.

عاد آماد إلى المنزل دون أن يقول كلمة واحدة لسولاياد. نهض زاهد بعد الانتهاء من الأكل، ليطلب من الجميع أن يصمتوا وليمنح الكلمة لكمال كي يوجّه كلمة للمدعوّين. نهض كمال بدوره وتحدّث عن تضحيته بابنه الوحيد حليم. لقد هرم كمال كثيرا خلال بضعة أشهر، ارتجف صوته وارتجفت كلماته من فمه مثل ثمار متعبة. لقد أكّد أنّه أسعد الآباء. فولده في الجنّة الآن. نقل زاهد الكلمة لسولاياد بعد ذلك. فرضت مكانته العالية على المكان صمتا مترعا بالاحترام.

- «يُبهجُ الحصادُ الأملَ، يرتكز الأمل على النّظرة الّتي لا تخشى رؤية الحقيقة». هكذا قال شاعرُنا الكبير ناهال.

خاطب سولاياد النّاس بهذه الجملة. لن ينساها آماد مطلقا سوف لن يكفّ عن تكرارها بعد ذلك. لقد بدت له مضيئة ومبهرة في آن واحدة. مثل لغز مؤرّق. كان مقتنعا بأنّ سولاياد كان قد ردّدها فقط من أجله. ما ذلك إلاّ وهم. إذ لم يكن من علاقة بين حقيقة سولاياد وحقيقته. لكنّه كان أصغر من أن يفهم ذلك بوضوح.

النظرة مثل العصفور، فهو يحتاج جناحيْن ليكون قادرا على الطّيران. بخلاف ذلك سوف يسقط أرضا، واصل سولاياد بقوله، أبدا، لن يكون علينا

Scanned with CamScanner

أن نخفض أعيننا في مواجهة العدوّ. مطلقا. إنّ حقدنا وشجاعتنا هما أجنحتنا التي ستقود أنظارنا إلى ما خلف الجبل، إلى أبعد من الكذب الّذي يتغذّى عليه الكلاب. استوعب كمال وزاهد ذلك، وكان ولداهما قد استوع ذلك أيضا.

وقف سولاياد أمام صورة شهيد المنزل، تلك الصّورة الّتي تحيلُ آماد على وجهه الحقيقيّ. وراح تحدّث عن شجاعة شقيقه وعن جمال تضحيته. تحدّث طويلا. كانت جمله تتلوّى لتعود بهم إلى البداية، ثمّ تعاود الانطلاق بأكثر قوّة. بدا سولاياد بلا حدود. كان جميع المدعوّين ينهلون من كلماته دون أن يجرؤوا على إبداء أقلّ حركة. لبرهة من الزّمن، بدا لآماد أنّه لم يعد يسمعه. فقد سمّر عينيه على شفتيْ سولاياد. كانتا قد انفصلتا عن وجهه الملتحي وراحتا تبصقان كلمات في الغرفة الكبيرة، مجرّد كلمات تنتهي بألاّ تعني شيئا. صارت مجرّد ضجيج. كانت كلمات سولاياد تتفجّر في الهواء مثل قنابل صغيرة ضعيفة مخلّفة وراءها أشلاء الصّمت.

اقترب آماد منه. أصبح قريبا جدّا من سولاياد إلى درجة أنّه توقّف عن الكلام. انحنى ورفع آماد بين ذراعيه. نظر نحوه بدهشة. فجأة أحسّ آماد بألم حادّ. أحسّ وكأنّ حيوانا يحاول الخروج من بطنه. لمح بعد ذلك شيئا في فم سولاياد، وسط الفم المفتوح وأمام عينيه مباشرة. كان هناك شيء ينظر إليه دون أن يراه.

عزيز، ماذا رأيتَ في فم سولاياد؟

نظر عزيز لميكائيل لأوّل مرّة في عينيه مباشرة منذ أن التقيا.

لا أعرف كيف أفسّر لك ذلك، يا سيّدي، لن أتمكّن من ذلك.

Scanned with CamScanner

هل هي رؤيا؟ هل لمحت رؤيا؟

ربّما. نعم كانت مثل الرّؤيا، لكنّها كانت دون صور. كانت أقرب إلى الرّائحة...

هل كانت رائحة ما تمكّنت من رؤيته؟

ـــــ لا أعرف يا سيّدي. لكنّها كانت شيئا مزعجا وقد تسلّل قلبي... كانت بمثابة حدس...

[حدس] وقد انبعث من فيه؟

نعم. كان من هناك.

حدس يخصّ ماذا؟

[يخصّ] أمرا رهيبا وقد حدث في علاقة بأخي. وهذا، هذ الأمر رهي كان في فم سولاياد. كان يقبع هناك مثل ذكرى أو مثل الشّعور. أنا... أنا أدرك الآن وأنا أتحدّث إليك بأنّ كلّ هذا لا يكاد يعني شيئا يُذكر.

لا، على العكس من ذلك تماما يا عزيز. واصل أرجوك. ماذا حدث بعد ذلك؟

بدأتُ بالارتجاف. كانت هناك اهتزازات أخذت في تمزيق جسدي. ضمّني سولاياد إليه وحبسني بين ذراعيه. طرأ تغيير على ذاك الألم الّذي كان قد أصابني في بطني. أعني أنّه لم يعد ألما بل تحوّل إلى قوّة تريد أن تخرج منّي بأيّ ثمن. تحرّرت من قبضة سولاياد كي أهرع نحو الصورة. هشّمت زجاج الصّورة بضربة من قبضتي ومزّقت الصّورة إلى قطعتين راحتا تتدلّيا خارج الإطار. ثمّ شرعت في الصّراخ أمام كلّ مدعوّي أبي: «أنا من في هذه الصوة، أنا

Scanned with CamScanner

آماد! لم تقع أيّة معجزة، عزيز هو الذي رحل!» أمسكني أبي من رقبتي بيد واحدة، ورفعني ورمى بي عرض الجدار. أغمي عليَّ. عندما عدتُ إلى نفسي، وجدتني ممدّدا في سريري. كانت أمّي منحنية، وجهها قبالة نافذة الغرفة. ناديتها فاستدرات نحوي. كدتُ ألاّ أتعرّف عليها، كان وجهها منتفخا. كانت عيناها محاطتيْن بهالتين سوداوين وكبيرتيْن. وكانت هناك بقعة دم متيبّسة فوق أنفها. قالت لي بكثير من الصّعوبة الّتي تعترضها أثناء تكلّمها، إنّني لم يعد بإمكاني مواصلة العيش في هذا المنزل. لقد أصبحت إبن لا أحد.

هل كان من الأجدر بك مغادرة عائلتك؟

نعم. ذهبتُ للعيش أحد أقرباء أبي في المدينة الكبيرة. مكثت هناك لعدّة أشهر. كانوا يسيئون معاملتي. لقد خذلت عائلتي. لم أكن أستحق الطّعام الّذي يقدّمونه لي. كانوا بالكاد يطيقونني. رغبتُ برؤية أمّي. لم تصلني أخبار عنها. منعها أبي من رؤيتي مجدّدا. ثمّ وفي أحد الأيّام أعلمني قريب أبي بأنّني سأنتقل للعيش في أمريكا. لم أصدّقه. لكنّها كانت الحقيقة. عندما وصلتُ هناك، علمتُ أنّ أمّي كانت قد رتّبت كلّ شيء بمساعدة من أختها حتّى أغادر البلاد نهائيّا. وصلتُ إلى هنا على متن باخرة برفقة عشرات اللاجئين الآخرين. لقد انتقلت للعيش مع خالتي دليمة الّتي كانت قد فقدت ولدها الذي التي كانت حاملا به. بكيْتُ عندما رأيتها. كانت تشبه أمّي. بكيتُ كثيرا.

لجأ عزيز إلى الصّمت مسمّرا عينيه على فنجان القهوة. لم يجرؤ ميكائيل على أن يقطع عليه ذلك. رفع عزيز رأسه نحو النافذة العريضة للمطعم، أين التجأ إليه بعد سير طويل. خيّم المساء سريعا. لمح ميكائيل من بعيد

Scanned with CamScanner

النّهر وهو يغرق في ضوء راح يميل إلى الزّرقة. كان الثّلج يتساقط برفق في هذه اللحظة، لمعتْ بعض النّدف الضالّة بين الأضواء المنبعثة من الأعمدة الكهربائيّة.

هل تفضّل أن أناديك عزيز أو آماد؟

يمكنك أن تواصل مناداتي بعزيز.

هل تشعر بالبرد؟

لا سيّدي.

طلب ميكائيل الفاتورة وغادرا المطعم. كانت الأرصفة والشوارع والمارّة وأسقف السيّارات المتوقّفة بيضاء ومغطّاة بثلج نقيّ. قبل أن يتركه أمام محطّة المترو، طلب ميكائيل منه إن كان سيعود إلى القسم.

وماذا بخصوص الطفل في المسرحيّة؟ أجاب عزيز

لا تخش شيئا، سوني لن يموت.

Scanned with CamScanner

كان عزيز قد عاد إلى قاعة التّدريبات. انفرجت أسارير ميكائيل وفي نفس الوقت اعتبر عودته مسؤوليّة إضافيّة. كان وعده بأن سوني لن يموت. لهذا السّبب، كان عليه إعادة كتابة المشهد الذي يطلب فيه المرتزق من الطفل سببا مُقنعا حتّى يُبقيَ على حياته. كيف يمكن تغيير هذه النهاية؟ أين سيجد الكلمات التي ستؤثّر في قلب جنديّ مسكون بالحرب، يائس ومجرّد من الإنسانية؟ بعد وقت طويل قضّاه ميكائل في التّردّد، استجمع ما يكفي من الشّجاعة كي يعرض على عزيز أن يسرد عليه ما جرى في طفولته، نفس تلك القصّة الّتي رواها له قبل بضعة أيّام في شوارع المدينة. لا يرى أنّ بإمكانه فعل ما هو أفضل. كانت كلمات عزيز رغم ارتجالها ترنّ أكثر دقّة وأكثر حبكة وأكثر واقعيّة من كلّ يمكن أن يكتبه لهذا المشهد. لقد اقتنع بذلك نهائيّا. قال في نفسه إنّه إذا ما استمع الجنديّ لحكاية الحزام النّاسف الّذي حمله طفل صغير ومريض، هذه الحكاية الّتي تخصّ توأميْن تبادلان الأدوار، هذه الحكاية الّتي لا تنتمي للمسرح بما أنّها كانت قد عيشت على أرض الواقع. قال في نفسه إذا ما فكّر الجنديّ في ولده وهو يصغي لهذه الحكاية، طفله الذي يشبه إلى حدّ بعيد الطفل الصّغير الذي يروي له هذه القصّة الحارقة مثل ذكرى. قال في نفسه إنّه قد تكون هنالك فرصة لئلاّ يقضيَ على سوني مثل كلب.

لن أتمكّن من فعل ذلك، سارع عزيز إلى الإجابة.

Scanned with CamScanner

ستفعل ذلك داخل كلماتك، بكلّ بساطة. لن تقول إلاّ الكلمات الأساسيّة. لن يأخذ ذلك سوى بضع دقائق.

لا أستطيع، سيّدي.

ألا تريد التّفكير بالأمر؟

هذا ليس ضروريّا.

يمكنني أن أساعدك.

لا أقدر! صرخ هذه المرّة بطريقة سدّت أفاق المناقشة.

ما كان عليّ أن أطلب منك ذلك، اعذرني. سأفكّر في شيء آخر. لا تقلق، سأجد حلاّ آخر. سوني لن يموت. إلى الغد، عزيز.

غادره عزيز دون أن يودّعه.

ظلّ ميكائيل يتمرّن طيلة ذلك اليوم في قاعة العروض التّابعة للمدرسة. هو عبارة عن فضاء قابل للتّعديل ويمكنه استيعاب ما يقارب المائة متفرّج، به ديكور وإضاءة وملابس كانت قد نفّذت من طرف الطلاّب ذاتهم بسينوغرافيا كان قد ارتآها ميكائيل مع ثلّة من زملائه. وقد أنهت المجموعة تدريباتها على المسرحيّة لتوّها وهي تدريبهم الأوّل الّذي يُقام داخل هذا الدّيكور، لقد كان يوما شاقّا حقّا. كان إيقاع بعض المقطوعات الخاصّة بالكورال بطيئا جدّا وعليه مراجعة ما يفوق نصف مشاهد الإضاءة التي أُقترحت على ميكائيل. غادر الجميع القاعة مرهقين ومتحمّسين في آن واحد، ما عدا عزيز الّذي طلب منه ميكائيل الانتظار من أجل التّحدّث إليه. كان الحلّ المتعلّق بسوني والّذي اقترحه عليه قد أجفل الشّاب حقّا. كان ميكائيل يشعر بكثير من الاحباط. بعد رحيل عزيز، ظلّ وحيدا لوقت طويل بين الدّيكور. كان الرّكح قد غُطّي

Scanned with CamScanner

بالرّمل الذي تمّ طرحه على أرضيّة البِلكْسيغلاس[2]. وقد وُضِعَ ما يقارب الخمسة عشر كشّافا ضوئيّا تحت هذه الأرضيّة. كان الضّوء يصعد من الأرض، ليضيء طبقة الرمل فتجعلها حارقة أو باردة وفق ما يقتضيه المشهد. يتوالد الفجر أو الغسق من تلك الأجواء الدّرامية المحيلة على الصّحراء. في خضمّ الأحداث، تُرْسَمُ طرق ضوئيّة تشقّ الرّمل الذي ينزاح تحت حركات المجموعة. ينقلب الرّكح إذن إلى لوحة ضوئيّة، تكشف للجمهور سرّه الوحشيّ أو تبعث له علامات أمل.

جالسا على الرّمل، ضائعا في ظلمة الرّكح، راح ميكائيل يلتبس بلبوس هذا المرتزق الّذي خلقه. هل هو مجرّد وحش؟ لم يكن ميكائيل ساذجا. فهو لم يكتب هذا النصّ ليدفع طلبته للتفكير فقط. إنّه يطرح على نفسه بنفسه مسألة الشرّ هذه. من السّهل الاكتفاء باتّهام أولئك الّذين يرتكبون جرائم الحرب بأنّهم سفّاحون أو وحوش ضارية. خصوصا عندما يكون الّذي يحاكمهم يعيش بعيدا عن الظّروف الّتي أثارت تلك الصّراعات الّتي عادة ما يضيع أصلها في دوّامة التّاريخ. ماذا كان سيفعل لو وجد نفسه في وضعيّات مماثلة؟ هل سيكون قادرا على القتل، مثله مثل ملايين الرّجال، دفاعا عن فكرة، عن قطعة أرض، عن حدود، عن بترول؟ هل يمكن أن يضطرّ هو الآخر على قتل أبرياء، نساء أو أطفال؟ أو هل سيمتلك الشجاعة، أمام خطر يهدّد حياته، فيرفض أمرا موجّها له بأن يصرع عزّلا بإطلاق الرّصاص من مدفعه الرّشاش؟

---

(2). البلكسيغلاس: بلّور صلب يُسمّى أيضا الكريستاليت له عدّة استخدامات منها توضيب الرّكح المسرحيّ.

Scanned with CamScanner

- لم أرو لك كلّ شيء، يا سيّدي.

انتفض ميكائيل في مكانه. كان تائها في أفكاره، فلم يلحظ عزيزا الّذي عاد عاد أدراجه إلى القاعة. كان بالكاد يلمح هامته الّتي تتوسّط صفّا من المقاعد.

المقاعد.

لا أراك جيّدا. أشعل عارضة التحكّم بالقرب منك.

لأجل تجارب الأداء، تُركّز عارضة التّحكّم الخاصّة بريجيسير الإضاءة في وسط القاعة. كان ذلك أكثر ملاءمة للعمل على مؤشّرات الإضاءة والموسيقى. عندما فتح عزيز عارضة التحكّم أُنيرت الأرضيّة، فانبهر ميكائيل للحظة.

هذا جميل!

ماذا عزيز؟

الدّيكور. هذا الضوء الذي يخترق الرمل، إنّه يشبه نزولا عكسيّا للأمطار.

نعم، إنها مطر من الضوء المتصاعد من الأرض. هذا هو تماما.

لم أرو لك كلّ شيء، يا سيّدي..

بخصوص ماذا؟

بخصوص سولاياد.

ماذا تريد أن تقول؟

الشيء الذي لمحته في فم سولاياد، هل تتذكّره؟

هل تقصد حدسك؟

نعم، ذاك الشيء... لقد كان مجرّد كذبة.

Scanned with CamScanner

اقتربْ. التحقْ بي على خشبة المسرح.

أتى عزيز ليجلس على الرّمل. غيّرت الإضاءة ملامح وجهه فبدا أكبر سنّا وأكثر صلابة.

لم يكن سولاياد أكثر من كاذب، سيّدي. لقد كذب علينا يوم اصطحبنا أنا وأخي على متن "الجيب".

ماذا تريد أن تقول؟

أخبرنا بأنّ الجبل كان ملغّما. قال إنّ الله وجّه خطواتنا ذلك اليوم. كانت كذبة. لم تكن هناك ألغام في ذلك الجبل، مطلقا. ولم يقطع الله حبل طائرتنا الورقيّة. لقد تسبّبت الريح في ذلك بكلّ بساطة. وما نلمحه في الجهة الأخرى من الجبل لم يكن ثكنة عسكريّة، كان مخيّم لاجئين. لقد تلاعب سولاياد بنا. تلاعب بأبي وتلاعب بنا جميعا.

هذا فظيع.

أجل، هذا فظيع.

أنا آسف عزيز.

كلّ ما فعله سولاياد هو الكذب علينا، يا سيّدي. بسببه، تحوّلت الجنّة إلى حقل حطام وأخي إلى مجرّد قاتل.

لا تقل ذلك، لم يكن أخوك إلاّ طفلا.

أملك الحقّ في قول ذلك.

لا تتّهمه بأنّه كان قاتلا. أو أنّني لم أعد أفهم شيئا. ماذا هنالك عزيز؟

Scanned with CamScanner

لقد علمتُ بأشياء كثيرة بفضل زوج خالتي دليمة. كان أبي دائما ما يردّد على مسامعنا بتحقير بأنّ خالتنا قد تزوّجت من عدوّ. في البداية كنت أخافه. كان الأمر أقوى منّي. لكن لم يكن لديّ من خيار آخر سوى الذّهاب للعيش في منزله. لقد كنت أشعر بالعار أنا أيضا. بالعار لأني لو كنت من حمل الحزام لكنت قاتل أفراد من عائلته أو من جيرانه. كثيرا ما تخيّلتُ أشياء مريعة. فهمتُ مع الوقت أن زوج خالتي لم يكن كلبا. كما كان أبي يؤكّد ذلك، لكنّه كان رجلا طيّبا ومستقيما وقد هرب من بلده لأنّه لم يعد يُطيق القنابل والاغتيالات والمذابح والأكاذيب. عندما أعلنتُ أنّني أريد أن أصبح ممثّلا، وافقتْ خالتي لكنّه رفض. حاول أن يُثنيني عن ذلك. أرادني أن أصبح مهندسا مثله. كان يقول لي إنّ بلكنتي هذه، لن يتجرّأ أحد على منحي أدوارا. وأنّه لن يمكنني العمل في بلدي الجديد. وأنّي مختلف كثيرا. لكنّي أصررتُ على ذلك. كنت أقول له: «لكن، عمّي "ماني"، هذا أفضل شيء في هذا العالم وهو ما أرغب بفعله في حياتي. سأعمل بكدّ وسترى، سوف أنجح. لن يتجرأ أحد على القول إنّني صاحب لكنة مختلفة. لن يتجرأ أحد عن سؤالي من أين أتيتُ. لا أحد.» لم يرد أن يسمع أكثر. لذلك حدّثته إذن عن الأصوات والنّجوم.

أصوات ونجوم؟

لا تظنّ بأنّني مخبول يا سيّدي. لكّني أنظرُ كلّ مساء إلى السّماء وأفكّر بأخي. وأبحث عنه في عمق السماء.

وهل وجدته؟

لا. لقد اختفى أخي من السماء. لكنّه كان أمرا أقوى منّي، ما زلت أبحث عنه.

Scanned with CamScanner

اغترف عزيز بعض الرّمل، وراح يتأمّل خيطه الّذي يسيل ببطء منذ قبضته المرفوعة. كانت الحبّات تبرق كلّما لفّها شعاع من الضوء.

قلت لعمي ماني إنّني سأموت لو لم أصر ممثلا.

هل قلت له ذلك حقّا؟

نعم.

ربّما كنت تبالغ قليلا. كم كان عمرك حينها؟

حوالي الأربعة عشر عاما.

وكنت تدرك فعلا أنّك تريد أن تصبح ممثّلا؟

نعم.

وماذا عن الأصوات؟ حدّثتَ زوج خالتك بشأن الأصوات التي تسمع، تلك الخاصّة بحليم أو بجدّك، أليس كذلك؟

لا، لقد اختفت أصواتها ما إن وصلتُ إلى هنا. لكن ظهرت أخرى. أصوات أخرى كثيرة. وهي الّتي حدّثت بها عمّي. قلت له: «عمّي ماني، لا تخبر خالتي دليمة، لكنّني أسمع أصواتا. كما لو أنّها ترقد في السماء فتخرجُها نظرتي من نومها. إنّها تهمس وتتمتم وتملأ رأسي بعذاباتها. كانت أكثر عددا من النّجوم التي تحدث ثقوبا في عمق اللّيل. كلّما أغمض عينّي، إلاّ والتمعت تلك الأصوات في رأسي».

أخبرني عمّي بأنّني ذو خيال شاسع. وأنّ كلّ شيء سيختفي عندما أحصل على عمل جيّد، وعندما أتمكّن من العثور على امرأة حياتي وعندما أنجب أطفالا.

Scanned with CamScanner

وإذن؟

ألححت على ذلك. أخبرته أنّ الأمر يبدو كما لو أنّ عشرات الأشخاص الّذين يسكنون داخل رأسي:«عمّي ماني، ربّما كنتَ على حقّ، أنا أمتلك خيالا شاسعا، لكن كيف السّبيل لجعله أقلّ. إنّ الأمر شبيه بحمل مستمرّ لمدينة صغيرة معي. أسمع أطفالا يمرحون ويضحكون وأحيانا يغنّون، ثمّ يشرعون في البكاء دون أن أعلم السبب. فأسمع إذن أصواتا أخرى، لنساء ورجال في نفس عمر والديَّ وآخرين أكبر سنّا بأصواتهم المتعبة، ثمّ تشرع كلّ تلك الأصوات في الصّراخ، فتراها تندب، تئنّ، وتدمدم من الغضب، كما لو كانت تجتمع في زعيق موحّد. وهل تعرف ماذا أعتقد عمّي ماني؟ حسنا، أعتقد أنّ كلّ تلك الأصوات، تريد منّا أن نسمعها. إنّها تريد أن تتحقّق على أرض الواقع، لا مجرّد أشباح في رأسي. إذا ما أصبحت ممثّلا فإنّي سأتمكّن من إخراجها إلى العالم، ومن أزوّدها بالكلام. الكلام، هل تفهم هذا يا عمّي ماني؟ صوتٌ سيتمكّن للعالم برمّته أن يصغي إليه عبر كلمات وجمل حقيقيّة. فيما عدا ذلك فإنّها ستتعفّن داخلي أو سأتحوّل أنا بدوري إلى شبح».

عزيز، تملك أنت تملك حقا خيالا شاسعا. هل قلت كلّ هذا لزوج خالتك؟

طبعا سيّدي. لم أكن أملك خيارا.

لماذا؟

لأنّها كانت الحقيقة.

وكيف كانت ردّة فعل عمّك؟

لقد ردّ بحقيقة أخرى. قال لي عمّي ماني: «صغيري عزيز، أرى ما تقصد

Scanned with CamScanner

قوله. أجل، أرى كلّ ذلك في الوقت الحالي. في خصوص كلّ هذه الأصوات التي وصفتها لي، إنّي أحاول أن أعرف من أين تأتي. إنّها لا تأتي من داخل رأسك فقط للأسف. أعتقد أنّه حان الوقت لأخبرك الحقيقة بخصوص شقيقك. لم أتعرّف عليه أبدا. كلّ ما أعرفه عنه كان قد أعلمتني به خالتك دليمة ومنكَ أنتَ. لكن أريدك أن تعرف أنّك بالنّسبة لي آماد وعزيز. أنت كلاهما. لا تبحث عن أخيك مطلقا لأنّه في قلبك». ثمّ أخذني عمّي من يديّ وأبقى عليهما بين يديه. قال لي: «اسمعني عزيز، لقد تحقّقت من كلّ ما أخبرتني به في خصوص سولاياد. لقد تحدّثت مع أشخاص جدّيين ممّن أثق بهم. كتبتُ لآخرين. بحثتُ في كلّ صحف ذلك الوقت. ما زالت لي هناك علاقات مرموقة لا بأس بها، من صحفّيين خاصّة. أستطيع أن أؤكّد لك أمرا واحدا: لم يكن هنالك ألغام وسط الجبل. كلّ ما رواه لك سولاياد كان خاطئا. لم يذهب أخوك أبدا إلى الجهة الأخرى من الجبل. لم تكن تلك مهمّته. لا توجد ثكنة عسكريّة للتفجير. لا يوجد من الجهة الأخرى للجبل إلاّ مخيّم بائس خاصّ باللاجئين. يوم قادوا أخاك، ذهبوا ناحية الجنوب، في الاتّجاه نفسه الّذي كانوا قد سلكوه مع حليم. لن يعلم أحد حقيقة ما فسّروه لشقيقك قبل أن يسلّموه إلى مصيره. كان عليه عبور الحدود عبر نفق سرّي. لا أستطيع أن أؤكّد ذلك لك، لكن الأمر الأكيد والّذي لا أحد سيتمكّن من محوه من تاريخ بلداننا، هو كيف مات أخوك. لقد فجّر نفسه وسط مئات الأطفال. أطفال يا عزيز، أطفال في مثل عمره، كان هناك عشرات الموتى وعدد أكبر من الجرحى الّذين بُتروا وشوّهوا بشكل خطير. لقد كان أولئك الأطفال يشاركون في مسابقة للطائرات الورقيّة. كانوا قبل ذلك قج اجتمعوا في مدرسة لمشاهدة عرض للدّمى المتحرّكة. لم أكن أنوي أن أطلعك اليوم على كلّ هذا. لطالما تحادثت مع

Scanned with CamScanner

خالتك دليمة في هذا الأمر. كنّا واثقين دائما من أنك ستكتشف الحقيقة بين يوم وآخر. كنت قد تفاجأتُ في بادئ الأمر لأنّك لم تكن مطّلعا على حقيقة الأمر عندما كنت هناك. أتخيّل أنّهم فعلوا كلّ ما في وسعهم حتّى يخفوا عنك هذه المعلومة. هذا فقط كي يحوّلوها إلى صالحهم..

كنت قد أطلعتني منذ حين، عن تلك الأصوات التي تسمعها، فلم أتمكّن من منع نفسي من التّفكير بأولئك الأطفال المضحّى بهم وبأهاليهم الممزّقين من الألم. أعتقد أنّك تحمل داخلك حداد كلّ أولئك الأطفال المقتولين. أعتقد أنّ ذلك بالضبط ما تسمعه من داخل عذاباتك. أو هي ربّما آخر رسالة بعثها لك أخوك بينما كان يضغط على المفجّر. لا نستطيع تفسير كلّ شيء، لا نستطيع حتّى تفسير الحرب عندما تقتل الأطفال». هذا كلّ كشفه لي عمي ذاك اليوم.

وقف عزيز وركل الرّمل بقدمه. تصاعدت غيمة من الغبار والضوء من الأرضيّة وانتشرت على كامل خشبة المسرح.

ما أخي إلاّ قاتل. لا يمكنني أن أروي قصّته مثلما تطلبها منّي. لن يصلح ذلك شيئا. لن ينقذ أحدا، حتّى ولو كان طفلا. جدْ شيئا آخر للمشهد.

عجز ميكائيل عن إيجاد كلمات للردّ عليه. علقت الكلمات في حلقه.

أخي قاتل أطفال، يا سيّدي!

وراح يكرّر هذه الجملة. تأمّله ميكائيل لبرهة. بقيَ عزيز واقفا أمامه وكأنّه ينتظر شيئا ما. كان الفضاء من حول جسده قد بدا كشيء له مسامّ من أين راح الغبار يتصاعد. انتصب ميكائيل واقفا بدوره وكلّه رغبة في أخذه بين ذراعيه وضمّه إليه بكلّ قوّة. لقد كان أن يفعل ذلك، فعزيز بحاجة للدّعم لا أكثر من ذلك. لكنّه لم يفعل ذلك بل بالأحرى راح يلحّ على عزيز أن يتراجع عن قراره.

Scanned with CamScanner

عليه أن يروي حكايته. هو الحلّ الأمثل. لن يغيّر التّفجير الانتحاريّ الّذي قام به شقيقه شيئا من منطق الحرب، سواء وقع في مدرسة مزدحمة بالأطفال أو وسط ثكنة عسكريّة. ففي كلتا الحالتين، يتعلّق الأمر بتدمير العدوّ ووسائله الّتي يمتلكها في هجومه وفي دفاعه عن نفسه. أصغى ميكائيل لما كان يقوله في داخله ووجد نفسه مقيتا. إنّه لا يستطيع التوصّل إلى فكرة واضحة. كان ضائعا في خظمّ استنتاجاته وراحت حججه ترنّ بشكل خاطئ. هنالك فرق بين قتل أطفال أبرياء وتفجير ثكنة عسكريّة، يمكن لأيّ شخص أن يدرك هذا الفرق. لكنّ ميكائيل ودون أن يشعر وضع نفسه مكان ذاك المرتزق الّذي ابتدعه. ما هو الشيء الذي سيثير عواطفه في قصّة عزيز؟ ما الّذي سيقوده إلى الإبقاء على حياة الطّفل؟ لماذا يستمع رجل مضطرّ على القتل إلى قصّة هذا التّبادل بين شقيقين توأمين؟

تتالت الأسئلة وخشِيَ ميكائيل ألاّ تكون كلّ الأجوبة الّتي بحوزته سوى أوهام إضافيّة، حتّى وإن بدا له عرضه المسرحيّ في هذه اللحظات مدّعيا وتافها. فإنّه راح يقاوم ضدّ مخاوفه أن يرى مشروعه المسرحيّ يتهاوى مثل حزمة ورق أمام سرد عزيز لهذا الحدث الّذي لا يمكن تجاوزه: أخوه التّوأم، طفل في التّاسعة من عمره، كان قد فجّر نفسه وسط أطفال آخرين في نفس عمره.

توجّه ميكائيل ليطفئ عارضة التحكّم وليضيء مصباحا يتوسّط سقف القاعة. فهو لم يعد في مقدوره تحمّل هذه الإضاءة القاتمة. دعا عزيز للمجيء والجلوس على كرسيّ بجانبه. ظلاّ يتأمّلان للحظات الفراغ المنتصب أمامهما، هذا الفم الكبير لخشبة المسرح بقدرته على الكذب والحقيقة في آن.

Scanned with CamScanner

لماذا وافق على إنجاز هذا الفعل الّذي لا يمكن تصوّره؟ إنّه السّؤال الذي توجّب عليك طرحه مئات المرّات على نفسك. أ لسْتُ محقّا؟

نظر عزيز أمامه مباشرة. انتظر ميكائيل لحظة أن يجيبه. لكن عزيزا بدا غائبا تماما.

لستَ عادلا عندما في اعتبار أخيك قاتلا. كيف نعلم بما كان يعتمل في قلبه عندما نفّذ ما كانوا ينتظرون منه؟ لقد ظلّوا يخدعونه إلى آخر لحظة. لا أعرف، ربّما ناولوه مخدّرا...

أنت لا تعرف عمّا تتحدّث، يا سيّدي.

معك حقّ، أنا لا أعلم شيئا. لقد تجرّأتُ على كتابة مسرحيّة حول الحرب بجهل تامّ بما يمكن أن تحتويه وأن تخلّفه. ما دخلي في الأمر، هيه؟

لم أُرِدْ أن أجرحكَ.

لكنّك فعلتَ ذلك.

المعذرة، سيّدي.

لا تعتذر. من الجيّد أحيانا أن يحدث أمر في حياتنا من شأنها أن يرجّ كياننا وأن ينقذنا من ابتذالنا.

أحبّ نصّك.

شكرا، لكنّه يبقى غير تامّ. أضف إلى ذلك أنّي لا أهتمّ بمعرفة إذا ما كنت تحبّ نصّي من عدمه. القضيّة الأساسيّة لا تكمن هنا.

أنت غاضب يا سيّدي.

Scanned with CamScanner

نعم، أنا كذلك!

انتصب عزيز واقفا وتوجّه ببطء نحو باب الخروج. وميكائيل لم يفعل شيئا ليثنيَه عن الرّحيل.

Scanned with CamScanner

سوني

لم يعد عزيز يأتي لتجارب الأداء كما أنّه لا يجيب على مكالمات ميكائيل أو رفاقه. وهذا خطأ جسيمٌ. إنّه يضع تكوينه برمّته في مأزق كما يتهدّده خطر الطّرد من المدرسة. قبل يوميْن من العرض التجريبيّ، لم يتبقّ لميكائيل خيار لذلك قام بتوزيع دوره على ثلاثة طلاّب حتّى لا توكل إليهم إطرادات طويلة يمكن حفظها في هذا الوقت الوجيز. أمّا بخصوص المشهد الأخير، فإنّ المرتزق لن يتوجّه بالخطاب لسوني، بما أنّه غائب جسديّا عن المشهد، بل للجمهور. بهذه الطريقة، سيصبح كلّ مشاهد هذا الطفل. لم يكن ميكائيل راضيا على هذه الفكرة. فهي لا تتيح تكوين رؤية واضحة حول قرار المرتزق النّهائي: هل تُراه سيقتل الطّفل أم سيتركه يعيش؟ ستظلّ الإجابة سابحة في أذهان الجمهور بكلّ تجريد. غير أنّ ميكائيل لم يجد حلاّ أفضل وهو غريق حالته العصبيّة هذه.

كان غياب عزيز قد أثّر على نشاط المجموعة. وأضعفت التّغييرات الّتي طرأت على المسرحيّة أداء البعض منهم. حاول ميكائيل بكلّ ما بوسعه أن يُبقيَ على هدوئه، وأن يُخفيَ مخاوفه وأن يضاعفَ تحفيزاته. لكنّه كان مهتزّا من الدّاخل. لقد أساء التّصرّف مع عزيز. إنّه في عمقه لا يملك أدنى فكرة ملموسة

Scanned with CamScanner

عمّا كان قد عاشه في بلده، عن العذابات الّتي تستبدّ به كلّما تخيّل لحظات أخيه الأخيرة. هل كان يفهم حقّا ما طلبوه منه؟ هل كان واعيا ببشاعة فعله ذاك؟ هل تمّ التّلاعب به إلى النّهاية؟ هل أُجبِرَ على إنهاء ما لم يتوقّع؟ إنّ هذه الأسئلة الّتي لا جواب لها ما أفرغ نصّه الّذي يتناول الحرب من وجاهته، لتزجّ به في عجز تامّ. كان اضطرابه كبيرا. أمّا حزنه، فأكبر من ذلك بكثير.

قبل ساعة من بدء العرض، اختفت عصبيّة ميكائيل نهائيّا وهو ما جعله في قمّة الذّهول. أ تُراه كان مبنّجا دون أن يدري ليكون محميّا لهذه الدّرجة من ذاك التخوّف المتصاعد؟ خيّر الجلوس بين الجمهور عوضا عن الريجيه (3) كما هو متوقّع منه أن يفعلَ. انطلق العرض بعد بضع دقائق من التّأخير، لكن كان كلّ شيء يسير بشكل جيّد بالنّسبة لعرض تجريبيّ. لم يتمكّن رغم ذلك من التركيز على ما يراه ويسمعه. كما لو كان نصّه الخاصّ يحتوي على ما يحرجه ويشعره بالخزي. راح يجبر نفسه على الاحتفاظ ولو ذهنيّا ببعض الملاحظات التي تخصّ العرض حتّى يزوّد بها الممثّلين بعده. فهو لا ينسى بأنّه تمرين بيداغوجيّ من ضمن أشياء أخرى. لكنّه كان قد أفلت خيط أحداث العرض، راح انتباهه يترنّح ويفاجؤه بالتّفكير في شقيق عزيز. غرق في تخيّل طفل صغير في التّاسعة من العمر بحزامه النّاسف الّذي كان قد شدّه لبطنه مخفيا إيّاه تحت قميصه. ظلّ يتأمّله وهو بين أطفال آخرين بصدد حضور عرض مسرحيّ، ليست قصّة حرب مثل الّتي يشاهدها الآن، لكنّها حكاية جعلتهم سعداء بكلّ بساطة. إنّه يستمع إلى

(3). الرّيجيه: قاعة صغيرة تتيح التحكّم عن بعد في سير العرض، والأضواء وغيرهما.

Scanned with CamScanner

ضحكاتهم. لزوج خالة عزيز وهو يتحدّث عن عرض لمسرح الدّمى. كان يرغب في معرفة إذا ما كان طفل محاطا بالمتفجّرات بإمكانه أن ينسى للحظة الضّغط بيده على الـمُفجِّر وهو مفتون بحركات الدُّمى، أن يعرف نهاية إذا كان كان من الممكن لمصير عزيز وشقيقه المأساويّ أن يحيد عن وجهته.

وبما أنّه كان يحاول الهروب من نصّه الخاصّ، في حين أن العرض قد شارف على النّهاية، وميكائيل بعد لا يهتمّ لما يحدث في الرّكح. هو صمت الذّهول الّذي اكتنف الممثّلين ما جعله يخرج من عوالمه الدّاخليّة. لقد ظهر عزيز على خشبة المسرح كما لو كان ذلك بلمسة سحريّة. كان واقفا بالجانب الخلفي للخشبة (4). كان يرتدي معطفه الشتويّ وشاله الأحمر الملفوف حول رقبته. لقد وصل لتوّه قادما من الخارج، يمكن تمييز بعض الثّلج الّذي بدأ بالذوبان على كتفيه. كان ميكائيل يشعر باهتزاز الجمهور من حوله. ففي الظاهر، راح المتفرّجون يتساءلون إذا ما كان دخول هذا الولد ينتمي للعرض أم لا. إنّه دخيل بلباسه هذا على هذا الدّيكور الصّحراويّ. كان الرّمل طيلة ردهات العرض قد كُنس تماما. ليست الخشبة في الوقت الحالي سوى لوحة مضاءة، راحت تزّود الممثّلين ببُعْد شاعريّ أو شبحيّ، حسب وضعيّتهم [الدّراميّة]. بعد برهة من التردّد، استأنف العرض سيْره. لكن لا شيء ظلّ على حاله. اجتاح الفضاءَ شعورٌ بالجدّيّة وقد اكتنف الممثّلين والمشاهدين وذلك لحضوره الوهّاج.

خطا عزيز خطوة.

اسمعني، جنديّ. اسمي سوني، وعمري سبع سنوات.

---

(4). تُستعار في الفرنسيّة لهذا الجزء من الخشبة عبارة "جهة الحديقة" côté jardin .

Scanned with CamScanner

كان بهذه الطريقة قد خاطب الممثّل الذي يؤدّي دور قاتل والديه. خطا خطوة أخرى باتّجاهه.

اسمعني، جنديّ. اسمي عزيز وعمري تسع سنوات.

وخطا خطوة أخرى.

اسمعني، جنديّ. اسمي آماد، أبلغ العشرين من عمري. في رأسي أسماء أخرى وأعمار أخَرْ، الكثير منها. هذا الّذي يحدّثك لم يكن وحيدا أبدا. إنّه يحمل في رأسه بلدا صغيرا. كنتَ قد قتلتَ للتوّ أهلي. قطعت يديْ أبي بواسطة سكّينك العملاق والمسنّن، ثمّ قطعت رقبته. لقد كانت حركتك دقيقة. مدهشة. لا بدّ وأنّ فرصا كثيرة قد توفّرت لديك حتّى تتدرّب على حركتك هذه وتنجزها بكلّ هذه الرّشاقة. وإنّك لم تُضع شيئا من براعتك وتركيزك عندما قضيتَ على والدتي برشّاشك الجميل والجديد. من أهداك إيّاه؟ هل تقبّلته كأيّة هدية؟ كم يبدو عليك بأنّك تعشقه وأنّك تجيد الاعتناء به! لكنّ ملابسك متّسخة وممزّقة. شعرك رماديٌّ بفعل الغبار ويداك حمراوان بفعل الدّم. كتفاك متهدّلتان ونظرتك مكسورة مثل حصاة. إني لمندهشٌ وأنت تطلب منّي أن أقصّ عليك قصّتي. أنا صغير في نظرك، فما أنا إلاّ طفلٌ. إلى ماذا تحتاج في قصّة قاصُّها طفل؟ ربّما لأنّك لا ترى طفلا حين تنظر فيّ؟ أو ربّما لا ترى إلاّ طفلك؟ لأنّك تملك ابنا أنت أيضا. تملك ابنا يشبهك، يشبهنا ويشبه أخي.

تقدّم عزيز إلى وسط خشبة المسرح. أطال الضّوء القادم من الأرضيّة بنيتَه. كان يشبه شعلةً متناهية الاستقامة ومتّجهة نحو السّماء. راح عزيز يخاطب الجمهور:

Scanned with CamScanner

كم عمرك؟ ما اسمك؟ لك اسم أب وعمر أب. لكنك تملك أيضا أسماء أخرى وأعمارا أخرى أكثر. يمكنني أن أحدّثك كما لو كنت أخي. بدل أن يكون لك رشّاش تمسكه بكلتا يديك وبكلّ ذاك الحُنق، يمكنك أن تضع حول كليتيْك حزاما مثقلا بالمتفجّرات. ستكون يدك على الـمفجّر وقلبك سيكون قلبي. وستطلب منّي أن أروي لك قصّة حتّى لا تنام وحتّى لا تضغط يدُك في اغفاءتك على الـمُفجّر، وأظلّ أحدّثك إلى نهاية الأزمان، هذه النّهاية الّتي تكون أحيانا قريبة جدّا.

نزع عزيز شاله الطويل، ثمّ معطفه. خامر ميكائيل شعور بأنّه الوحيد الّذي كان يتفرّج عليه، هو الوحيد، في كلّ القاعة. لكنّه كان متأكّدا من أنّ كلّ متفرّج كان يحسّ الشّيء ذاته، ذلك المساء.

اسمعني، جنديّ، حتّى في هذه الوضعيّة الصّعبة التي أجد نفسي في خظمّها، ما زلت قادرا على التّفكير. أنت تقول لي إنّك ستتركني أعيش لو أعطيتك سببا مقنعا لتُبقيَ على حياتي. أجل، أستطيع أن أسترعى انتباهك بقصّة سوف تخرجك من حقدك. أنا لا أصدّقك. أنت لست في حاجة لأن تُسرد عليك قصّة. وخصوصا، أنت لست بحاجة لأن تجد سببا حتّى لا تُخمِدَني مثل كلب. هل تريد أن تعرف ماذا أفعل حاليّا بالتّحدّث إليك كما لو كنتُ أحدّث صديقا؟ إنّي أبكي أبي، إنّي أبكي أمّي وكلّ إخوتي أيضا، فلديّ منهمُ الآلاف.

خطا آماد خطوة أخيرة ناحية الجمهور.

لا، لست بحاجة لأن يكون لك سبب أو تكون بكلّ بساطة على حق حتّى تفعل ما ترى أنّه عليك فعله. لا تبحث في الخارج عن شيء هو أصلا موجود بداخلك. أنا أيضا، ثيابي متّسخة ومترهّلة. وقلبي منكسر مثل حصاة. وأنا أبكي بدموع تمزّق خدّيّ. لكن، كما قد تلاحظ، لي صوت هادئ. بل أفضل من

Scanned with CamScanner

ذلك، لي صوت مطمئنّ. أحدّثك بكلّ السّلام [المنبعث] من فمي. أحدّثك بكلّ السّلام الّذي في كلماتي، في جـُمَلي. أحدّثك بصوت له من العمر سبع سنوات، تسع سنوات، عشرون سنة، ألف سنة...

هل تسمعه؟

Scanned with CamScanner